موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

عِبادَةُ أَموات
أَمْ هِيَ
شَفاعَةُ القِدِّيسين؟

بحث كتابي آبائي ليتورجي تاريخي

www.coptology.com

Coptology

عِبَادَةُ أَمْوَاتٍ أَمْ هِيَ شَفَاعَةُ القِدِّيسِينَ؟

بحث كتابي آبائي ليتورجي تاريخي

بقلم الدكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٤

www.coptology.org

جدول المحتويات

إهداء ١٠
ضرورة لا مناص منها ١١

القسم الأول دراسة لاهوتية تاريخية ليتورجية ١٤
الفصل الأول كنيسة مصر تحت الحصار ١٥
خداعٌ وكذب ١٦
ملفات الأنبا بيشوي مطران دمياط ١٧
عبادة الأموات ١٨
جسد المسيح الحي، لا توجد فيه أعضاء ميتة ٢٠
الاعتداء على تجسد الرب وصلبه وقيامته ٢١
لاهوت الصلاة في الأرثوذكسية ٢٥
الصلاة المسيحية في جوهرها هي استعلان وحدة السماء والأرض ٢٧
الكنيسة أيقونة كاملة ٣١

الفصل الثاني الشفاعة، الاسم والمعني اللاهوتي الصحيح..... ٣٣

الوسيط الواحد هو الكاهن الوحيد ٣٥

غلاطية ٣: ١٩-٢٠..... ٣٦

وسيط عهد أفضل، وسيط عهد جديد ٣٧

وسيط العهد الجديد والأبدي، ومنظومة العصر الوسيط..... ٣٨

الوسيط الوحيد والكاهن الوحيد ٣٩

اللوغوس خالق كل الأشياء، هو وسيط، كخالقٍ للكل ٤٠

المسيح هو الفادي والملك ٤١

الذبيحة العظمى ٤٢

بشارة الإنجيل في الرسالة إلى العبرانيين ٤٣

الوسيط الكاهن الابن الوحيد للآب..... ٤٥

الفصل الثالث المكونات العقائدية لشفاعة القديسين..... ٤٧

أولاً: وحدة جسد المسيح ٤٧

ثانياً: وحدة جسد المسيح والموت ٤٨

الراقدون في ملكوت الله أو ملكوت السموات..... ٥٠

الله وحياة عدم الموت ٥٣

حياة بالروح القدس..... ٥٨

الفصل الرابع الشفاعة، أو الدالة هي الجرأة والشجاعة في الصلاة (دراسة لبعض القطع التي تقال عن والدة الإله) ٦٠

افرحي يا مريم ..... ليس لنا دالة ٦٢

أيقونة الكنيسة حسب كلمات اللحن..... ٦٣
ولأبواب الجحيم أغلقي لئلا يبتلعوا نفسي يا عروس بلا عيب للختن الحقيقي .. ٦٧
الكيان الجديد ٧٤
الكيان الجديد كشركة ٧٧
الفصل الخامس صلاة الجسد الواحد، الذي لا ينقسم إلى حيٍّ وميتٍ..... ٧٩
نظرة شاملة على الكنيسة الجامعة ٧٩
أولاً: العصور الأولى..... ٧٩
وحدة السماء والأرض..... ٧٩
شهادة الآباء بعد العصر الرسولي..... ٨٠
أخطاء تاريخية تعبِّر عن نظرة مذهبية بلا تاريخ..... ٨٠
ثانياً أقدم الشهادات عن وحدة الكنيسة الجسد الواحد، وشفاعة القديسين..... ٨٥
رسالة إلى من يطلب العودة إلى آباء الكنيسة..... ١٠٤
ملحق القسم الأول..... ١٠٥

القسم الثاني مختارات من عظات الآباء في أعياد القديسين والشهداء ... ١٢٥
الفصل الأول نسيان التاريخ ١٢٦
الاحتفالات السنوية أو التذكارات..... ١٢٩
الفصل الثاني الشهيد جورديوس Gordius ١٣٠
مقدمة موجزة ١٣٠
الفصل الثالث مختارات ومقتطفات من عظة القديس غريغوريوس النيسي عن استشهاد ثيؤدور الجندي، وشهداء سبسطية ١٣٤

الشهيد ثيؤدور الجندي..... ١٣٤
شهداء سبسطية الـ ٤٠ ..... ١٣٥
كرامة الشهداء..... ١٣٦
صراع الشهداء هو كمال صراع الكنيسة مع الشر ١٣٧
التحول من السقوط إلى المجد ١٣٧
أجمل خاتمة لعظة ١٣٨
الفصل الرابع عظة القديس باسيليوس عن شهداء سبسطية..... ١٣٩
الفصل الخامس ظهور العذراء والقديس يوحنا الرسول، للأسقف غريغوريوس العجائبي ١٤٨
الكنيسة والفردوس وشجرة الحياة والسيف الناري وشفاعة الشهداء:..... ١٤٩
الفصل السادس القديس يوحنا ذهبي الفم..... ١٥١
نص العظة عن الشهداء ١٥١
أجساد الشهداء..... ١٥٢
توابيت الشهداء والتوبة ١٥٣
الشيطان يقف خارج مبنى الكنيسة..... ١٥٣
العظة الثانية عن الشهداء: (الشهداء والصراع ضد الشياطين) ١٥٣
زيارة أماكن دفن الشهداء ١٥٤
الشهداء يشاركون الاحتفال بالعيد ١٥٤
عظة عن الشهيد بابيلاس Babylas ١٥٥
الشهيد وقوة الروح القدس عربون القيامة ١٥٥

العرافة في معبد أبوللو ١٥٧
ماذا حدث عند فتح التابوت ونقل جسد بابيلاس؟..... ١٥٨
عظة على الشهيدة العذراء بيلاجية Pelagia ١٥٨
الوسيط ١٥٩
ملحق القسم الثاني ١٦١
صلوات الشهداء قبل استشهادهم..... ١٦٢
القديس بوليكارب: (١٥٦م) ١٦٢
كاريوس وبابيليوس وأجاثونيك..... ١٦٣
لوسيان ومرقيان ١٦٤
بيونيوس ومثرودوروس..... ١٦٤

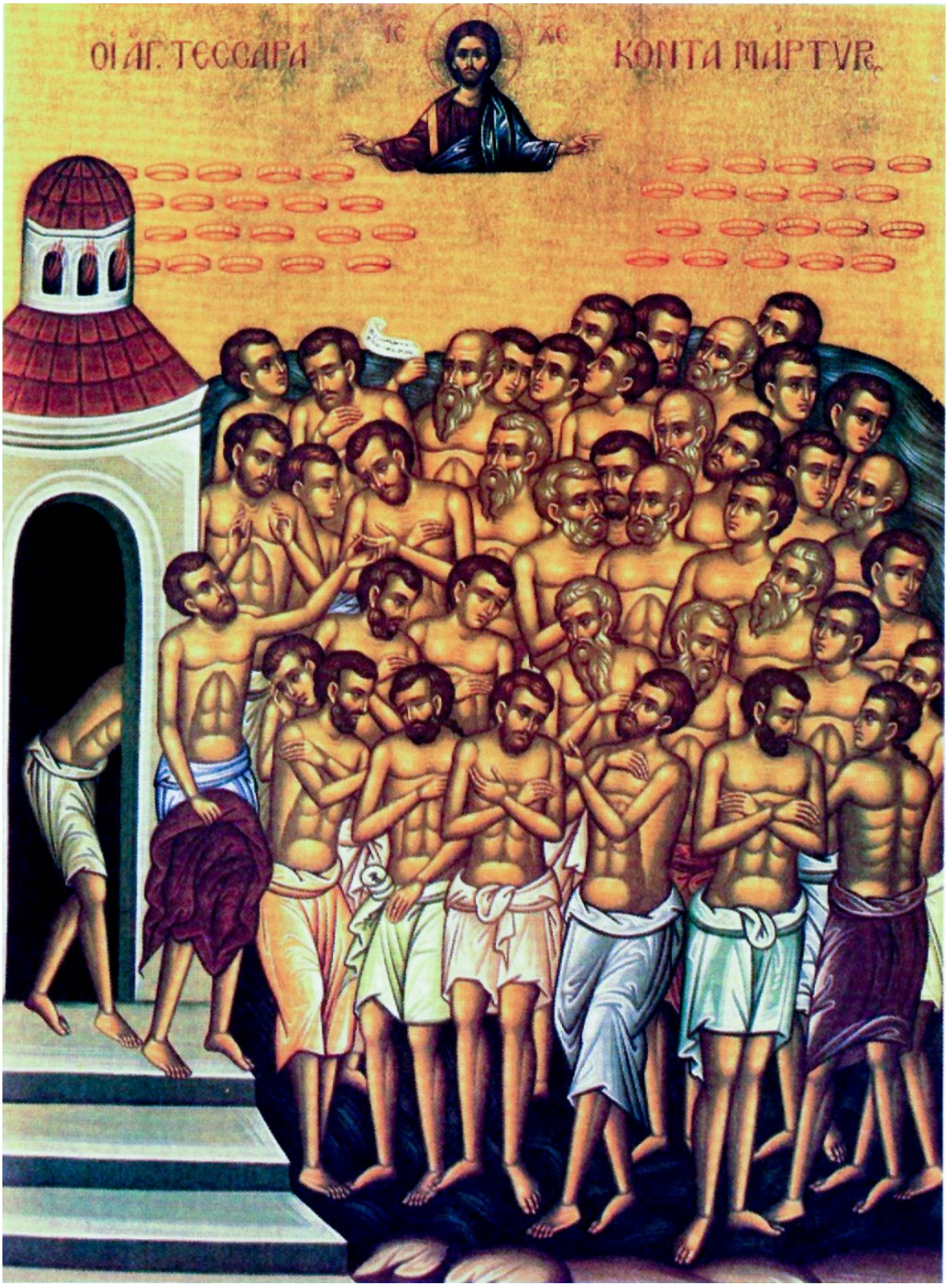
ΟΙ ΑΓ. ΤΕΣΣΑΡΑ
ΙΣ ΧΣ
ΚΟΝΤΑ ΜΑΡΤΥΡ

أيقونة الغلاف

القديسون الأربعون شهيداً بسبسطية

كانوا قادةً في الفرقة الرومانية المشهورة والمعروفة بالنارية. وقد ذهبوا في عهد ليكينيوس (بداية القرن الرابع) الى جبهات ارمينيا لحماية حدود الامبراطورية.

طلب الامبراطور أن يقدم الجيش ذبائح للأصنام، فاجتمع الجيش كله لتقدمة هذه الذبيحة. فامتنع أربعون من قادة الفرقة النارية عن الاشتراك في هذه التقدمة. وإذ خالفوا بذلك الأمر الإمبراطوري، قادهم الجند إلى الوالي في سبسطية. لما مثلوا أمام الوالي سألهم عن أسمائهم، فأجابوا كلهم بصوت واحد "انا مسيحي".

حاول الحاكم إرضاءهم وإقناعهم بالرجوع إلى ديانة آبائهم، ووعدهم بأن القيصر سوف يكافئهم على خدماتهم بأعلى الرتب. فكانوا يجيبون على كل هذه: "إننا لن نخون ملكنا الذي هو ملك السماوات والأرض"[1].

بعد ذلك أمر الحاكم بأن يُسجنوا لعلّهم مع الوقت يرجعون عن رأيهم، وطلب أن يُعذَّبوا بعذابات كثيرة، إلَّا أنهم لم يتراجعوا عن موقفهم. فصدر الحكم عليهم بالإعدام، بأن يُعذَّبوا وسط بحيرة قد جمدت ماؤها من شدة البرد. ولما وصلوا إلى ضفاف البحيرة أُمروا بأن ينزعوا ثيابهم وأن ينزلوا إلى البحيرة، وكانوا يقولون بعضهم لبعض: "إن الجند نزعوا ثياب المخلّص واقتسموها بينهم، وإن يسوع احتمل ذلك لأجل معاصينا. فلننزع الآن ثيابنا لأجل حبه، ونكفِّر بذلك عن خطايانا". إلَّا أن واحداً منهم خارت عزيمته فخرج من الماء البارد.

وكان الحراس الواقفون ينظرون إليهم بإعجاب. فأمتلأ واحد من الحراس إيمانا، وصاح برفاقه وقال: "أنا مسيحي". فأمر قائد الحراس بأن يلقى في البحيرة، فعاد الشهداء إلى عددهم الأول.

وفي اليوم التالي أمر الحاكم بأن يُخرجوا من البحيرة لتُقطع أجسامهم، وليُقتل من كان لا يزال حيا بينهم. فأخرجهم الحراس كلهم، ووضعوا تلك الأجسام المائتة والمهشمة في عربة، وذهبوا بها ليحرقوها. هكذا استشهد الأربعون قائداً الذين ضحُّوا بحياتهم وبمجد العالم وشبابهم في سبيل المسيح. تعيّد لهم أم الشهداء في الثالث عشر من شهر برمهات القبطي.

في الأيقونة المقدسة، ها هم يستشهدون في بحيرة الجليد، بينما نجد أحدهم قد ضَعُفَ وخرج من الماء ولبس ثيابه، ودخل إلى قلب المبنى المظلم، لكن أحد الحراس يهمُّ بخلع ثيابه والنزول معهم إيماناً منه بالرب يسوع الذي يستشهدون في سبيله.

إهداء

إلى شهداء كنيستنا المجيدة، أُم الشهداء،

لا سيما الذين قُتلوا من أجل الإيمان

في كل قرى ومدن مصر،

من صعيدها إلى اسكندريتها

بدايةً بمار مرقس الرسول، حتى عصرنا الحديث

خميرةً وبذرةً ووديعةً وميراثاً وتراثاً

للآتين بعدنا إلى الأبد.

ضرورة لا مناص منها

على المستوى الشعبي وحده، ومن أجل التبسيط الشديد، يصوِّر بعض الوعاظ شفاعة القديسين على أنها وساطة بين الله والبشر مثل من يذهب إلى وكيل الوزير، بسبب عجزه عن الاتصال المباشر بالوزير. والبعض يسيء إلى الوقائع الإنجيلية نفسها، ويستشهدون بما حدث في ليلة آلام الرب، عندما أومأ بطرس إلى يوحنا طالباً منه أن يسأل الرب عمن هو مسلِّمه (راجع يوحنا ١٣: ٢١-٢٥) .. وكأن بطرس كان غير قادر على الاتصال المباشر بالمسيح .. أمثلة وتشبيهات تفوق الحصر. ليس لدينا أي نية في نشرها، لأن نشر الأخطاء يعدُّ مساعدة على دوام الأخطاء. ولكن كل هذه الأمثلة تدور حول نقطة واحدة، وهي أن الخاطئ عاجز عن الاتصال المباشر بالله، ولذلك يطلب وساطة القديسين، الأحياء والراقدين.

نقول بكل وضوح، هذا ليس تعليم الكنيسة الأرثوذكسية على وجه الإطلاق.

وهناك اتجاهٌ آخر أكثر اعتدالاً، ولكنه خطرٌ هو أيضاً، يقول إن الخاطئ لا يستحق المثول بين يدي الله، وغير قادر على أن يتوجه إليه بالكلام، ولذلك يطلب شفاعة القديسين. وغالبية الوعاظ ماهرون جداً في شرح هذه النقطة، ولكن زيادة تأكيد عدم الاستحقاق هو أيضاً لا يتفق مع روح الإنجيل، وهو أيضاً، ليس تعليم الكنيسة الأرثوذكسية.

اذن .. ما هو تعليم الكنيسة الأرثوذكسية الخاص بشفاعة القديسين؟ وما هو مصدر هذه العقيدة؟ وهل هي عقيدة غريبة عن روح المسيحية، أم هي عبادة أوثان وبقايا

تقديس الأبطال، أم هي عبادة أموات، وما إليه من ادعاءات وخرافات المتطرفين؟

دعوني -بدايةً- أقرر حقيقةً ساطعةً، كلما ارتفعت نبرة الهجوم المقنَّع على أُم الشهداء، كلما وجدت نفسي أمام ذلك السيل من الجهل، وعدم الإيمان، بل ومن الوقاحة التي يظن أصحابها أنهم قادرون على إعادة كتابة التاريخ، أو تقديم صورة زائفة من اختراع عقولهم، حشدت فيها الكراهية كمَّاً هائلاً من الاحتجاج على ما لا يعرفون، مرةً باسم الكتاب المقدس، وأخرى باسم وساطة الرب يسوع نفسه، كأن الرب جاء ليقود أفراداً متباعدين لا أعضاء جسده! أو كأن الكتاب المقدس هو الذي بنى الكنيسة، وهو ليس جهلاً وادعاءً كاذباً فقط، بل هو أيضاً محاولة لفرض الرأي الشخصي عن طريق قرارات خاطئة، والأدهى من ذلك، الادعاء بأن رأياً ما هو التعليم الرسولي، بالرغم من عدم استناده إلى أي أساس تاريخي.

دعوني أيضاً أقرر حقيقةً أخرى، إن زيارة أماكن دفن الشهداء، ما هي إلَّا تعبيرٌ عن المحبة للذين دفعوا حياتهم ثمناً، وإنَّ -حتى- التمسح بأجساد القديسين أو تقبيلها، إنْ هو إلَّا تعبيرٌ عن قبول هؤلاء في حياتنا، وتعبيرٌ عن احترام الشهادة والشهداء. ولذلك، ما يوصَف في التقوى الشعبية بأنه "بركة"، هو في الحقيقة وقوفٌ مع الشهداء صفاً واحداً، والاعتراف بأننا واحد معهم، وأن لنا ذات الإيمان، وذات القضية، وذات المصير.

إن عشرين قرناً من التاريخ تشهد لنا. نسيجُ حياةٍ واحدة امتد من البشير القديس مرقس الرسول إلينا، عبر القديسين والنساك والشهداء. صرحٌ لا يمكن أن يهدمه أحد؛ لأنه صرح الحي من بين الأموات، حمل الله يسوع المسيح الغالب دائماً.

لذلك، بالمعاناة والصبر والدم سوف نسير، مهما كانت الجراح، سواء من الخارج أو من الداخل، أو كانت من الذين تولوا مسئولية خدمة البيعة، وكانت مسئوليتهم تلزمهم بالأمانة والدقة. أقول إن تخلى البعض منهم عن الأمانة، لن يزيدنا إلَّا أمانةً.

إن عشرين قرناً تشهد لكِ يا أم الشهداء، والشهادة حياة، والشهداء أحياء. والشهادة الحية متجسدة في الصلوات والأعياد وحياة أعضاء جسدكِ الذي افتداه من الردة، الذين عاشوا أوفياء ليسوع المسيح رب المجد.

من أجلك –عزيزي القارئ– وحتى لا تكون ضحيةً سهلةً لخداع معلمي الكذب الذين ينكرون وحدة جسد المسيح الكنيسة، ولا يؤمنون بأن الذين رقدوا في الرب هم أحياء "في كورة الأحياء إلى الأبد"، قدمنا هذا البحث، والذي نرجو أن يكون بدايةً يتبعها أبحاثٌ أخرى.

دكتور

جورج حبيب بباوي

١٧٣١ قبطية

عيد النيروز

٢٠١٤ ميلادية

القسم الأول

دراسة لاهوتية تاريخية ليتورجية

الفصل الأول

كنيسة مصر تحت الحصار

ترزح كنيسة مصر تحت حصار من الداخل، وهو الأشرُّ، تفرضه منظومة العصر الوسيط، ويساندها الجهل بالتراث، وهو حصارٌ مصدره فقدان التاريخ والجهل بتراثٍ امتد طوال ألفي عام. هذا التشخيص هو ما دعا أستاذنا المرحوم الدكتور أنور عبد الملك إلى القول -في مجالٍ آخر- إن مصر لن تتعافى إلَّا إذا استردت تاريخها، وعرفت كيف آلت الأمور إلى ما هي عليه الآن. وهي مقولة صادقة سبقها منذ أكثر من نصف قرن من الزمان مقولة المؤرخ البريطاني توينبي: إن مناخ الأصولية وتربته وبذاره وثماره لا تنجح إلَّا في بلادٍ فقدت تاريخها القومي. وسبب ذلك لا يخفى على فطِن، ذلك لأن التاريخ:

حَفِظ لنا **أولاً** إجاباتٍ متعددةٍ على نفس الأسئلة المطروحة.

سجَّل لنا **ثانياً** محاولات النجاح والفشل، وأبرز نجاح القيادات وفشلها، فهو ليس تاريخاً للانتصار فقط، بل هو سجلٌ لأسباب الهزائم أيضاً.

ولأنه **ثالثاً** ينزع قناع العِصمة والتفوق العرقي والديني والعلمي .. الخ لأنه يؤكد لنا أن ما لدينا جاء من روافد كثيرة من الوطن ومن خارج الوطن. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تُعدُّ بنية الدولة الحديثة في مصر أوروبية – بريطانية – فرنسية – إيطالية. ورغم مرارة وظلام الاحتلال، فإن الاحتلال بكل ما فيه من بشاعة هو مؤسِّس النظام الإداري المصري وكذلك نظام التعليم، وبذلك يكون الاحتلال قد خلق نظاماً يساعده على البقاء طويلاً، ولكنه لم يُدرك أن أجيالاً سوف تنشأ في داخل هذا النظام، وبواسطة مناهج التعليم سوف تطالب الاستقلال.

أسوق هذه المقدمة لكي أقول إن الهجوم الذي يقوده كلٌّ من:

*د. سامح موريس، وآخرون باسم اللاطائفية وعودة مسيحي الشرق الأوسط للمسيح، هو هجوم حركة الإصلاح في شكلها الجديد، بعد أن استفادت من اخطاء القرن الـ ١٨ والـ ١٩.

* والهجوم الذي تقوده مجموعة تسمي نفسها بمجموعة نقد نصوص العهد القديم.

* وهجوم الملحدين الذين ارتموا في حضن إلحادٍ لا يعرفون عنه إلَّا أنه رفضٌ للتعليم الكنسي الذي يُقال من على المنابر، وهو في أغلبه تعليمٌ لا علاقة له بالأرثوذكسية، ولا حتى بالمسيحية نفسها.

أقول إن الهجوم الذي تقوده هذه المجموعات وغيرها على الكنيسة القبطية وتراثها الطقسي والليتورجي، أقل ما يمكن أن يُوصَف به هو أنه لا يستند إلى أي أساسٍ تاريخي بالمرة، وبالتالي لا يمكن له أن يصمد أمام محاولة رده إلى أصوله، وعرضه على التاريخ، ولذلك فإنه لا محالة سوف يذهبُ أدراج الرياح.

خداعٌ وكذب

فقد ضحكتُ -في مرارة قلبٍ- من اقتباسات للأب متى المسكين القبطي الأرثوذكسي، تُقطَعُ من سياق الشرح، بحيث تبدو وكأنها تؤيد هجوم الإنجيليين على الأرثوذكسية، ونسى هؤلاء أن راهب الأسقيط لم يخرج خارج الكنيسة أم الشهداء، حتى عندما طُرد وعاش في وادي الريَّان منفياً. وعندما عاد لدير الأنبا مقار، فقد عاد ليقود أكبر حركة تعمير لدير كاد أن يندثر، وبالرغم من ذلك فقد عاش تحت حصار فرضه عليه الأنبا شنودة الثالث، ومن لف لفه. ولكن ما يجب أن ننبه إليه ونقرره هو أن الأب متى المسكين طوال حياته لم يجرد قلمه ليكتب كلمة ضد أي عقيدة من عقائد الكنيسة.

ولم يكتفِ المهاجمون –كذباً وخداعاً– باستخدام الأسماء المشهورة والبارزة، بل نجدهم يطالبون بالعودة إلى الآباء!!! وزيادة في الخداع تطرقوا لِما نُشِر من خطابات الأب فليمون المقاري، الذي ناله نفس النصيب، من نزع كلمات وسطور من سياقها، كُتبت لكي تؤكد مكانة الرب وأبدية الخلاص والنعمة ومحبة الله الفائقة للخطاة، فتحول هو بدوره إلى مصدر آخر للهجوم على الأرثوذكسية، رغم أنه عاش راهباً في دير الأنبا مقار، يكاد لا يعرفه أحد، عائشاً الحياة الأرثوذكسية في ملء نعمة المسيح التي تُستعلن في صلوات الكنيسة وحياة قديسيها.

ملفات الأنبا بيشوي مطران دمياط

الكنيسةُ إذن تحت حصار الجهل بالتاريخ، وتحت حصار مقاومة التراث الأرثوذكسي نفسه. وإن كان مؤتمر التعليم الذي قاده البابا تواضروس الثاني ببراعة وحكمة قد جاء بعدة توصيات، ولكن لا زال تحقيق بعض هذه التوصيات على أرض الواقع يحتاج إلى مثابرة وجهد، ولكن الرجاء في قيادة البابا تواضروس الثاني لم يخبو بعد رغم ما يُقال عن وجود ملفات سرية يملكها مطران دمياط، ويهدد بها الكل، وهو موضوع يستوجب قطعه من الكهنوت وإعادته للدير، إذا كان صحيحاً؛ لأن الكنيسة ليست مؤسسة بوليسية مثل الجستابو أو المخابرات المركزية CIA أو مباحث أمن الدولة، تحتفظ بملفات تضم خطايا البشر؛ لأن مجرد وجود هذه الأوراق هو دليل على ارتداد مالكها عن الإيمان بالمسيح، لأن مَن يحفظ الخطايا حسب تراثنا الأرثوذكسي هو "المشتكي"، أي الشيطان، وعندما يقف الشيطان أمام المذبح المقدس في ملابس أسقف، فهذه نهاية كل ما هو مقدس.

نتعشم أن يكون كل حديث عن هذه الملفات هو "هذيان" الجبناء، لكن في هذه الأجواء القاتمة وأمام سيل الهجوم المنشور على شبكة المعلومات لم يعد لدينا إلَّا الرد على هذه الأكاذيب، ومواجهة ما يتم من خداع.

عبادة الأموات:

صديقنا الراحل الكريم د. لبيب مشرقي، القس الإنجيلي المشهور هو صاحب العبارة المشهورة في مذكرات قسيس: "جلست الكنيسة القبطية عند قبور آبائها تنادي هؤلاء هم آبائي فهاتوا لي مثلهم". وهناك قسٌّ آخر كنت ولا زلت أتعشم في عودة الوعي بالتاريخ إليه، هو صاحب عبارة "عبادة الأموات"، وهو يقصد بالأموات قديسي الكنيسة، مثل أنطونيوس الكبير، وأثناسيوس الرسولي، وكيرلس خاتم الآباء، وباخوميوس أب الشركة، وفي التاريخ القريب الأنبا ابرآم اسقف الفيوم، والبابا كيرلس السادس، وحبيب جرجس، بخلاف جيشٍ آخر يمتد من مار مرقس شهيد مصر إلى العصر الحديث الذي قد ينصف الأب متى المسكين ويضعه في عِداد معلمي الإيمان، وهو أحد أسباب إعلان قداسة شخصٍ ما.

والاتهام بـ "عبادة الأموات"، هو اتهامٌ قذر جداً لا يليق أن يصدر من فم مسيحي سمع من العهد الجديد، ومن قديسي الكنيسة أن المسيحي يجب أن لا تصدر "كلمة رديئة أو باطلة لا تبني من فمه".

على أن قذارة الاتهام تأخذ صورتها الحقيقية عند ردها إلى جذورها التاريخية، وهنا يتبدى التناقض الحقيقي بين المهاجمين الذين تحللوا من قيود التاريخ وأطلقوا اتهاماتهم على عواهنها، وكأن الكنيسة القبطية كانت تحيا في الفراغ، وبيننا نحن عندما نلجأ للتاريخ ليحكم في مدى انتماء أيٍّ من الفريقين للحياة الإنسانية، ذلك أن ما يميِّز الإنسان بشكلٍ أساسي هو أن الإنسان حيوان له تاريخ. وأول ما نلفت النظر إليه هو أنه لم يكن لدينا –حسب الأصل القبطي، أي في لغتنا الأصلية– كلمة "عبادة"، بل دخلت إلينا هذه الكلمة من ترجمة شيخ الإنجيليين "فان ديك" في الترجمة البيروتية للكتاب المقدس. لأن الكلمة المستخدمة لدينا في القبطية واليونانية هي كلمة "خدمة – ⲙⲉⲧⲙⲉⲩⲓ". ذلك لأن القس الإنجيلي لم يكن يعرف –والشاهد على ذلك هو كل كتب التراتيل الإنجيلية التي طُبعت في مصر ولبنان ابتداءً من بهجة الضمير في نظم المزامير إلى ما انتهت إليه

هذه الكتب في وقتنا الحالي- أن الخدمة - ⲙⲉⲩⲉⲣⲅⲓⲁ، هي خدمة الثالوث لنا في السرائر الكنسية، فنحن نخدم الثالوث؛ لأنه يخدمنا، وبالتالي الخدمة هي ممارسة لعلاقة الشركة بيننا وبين الثالوث، في حين أن كل ما ورد في هذه التراتيل، ليس أكثر من مجرد وصفٍ لعلاقة خارجية بين المؤمن والمسيح. وإذا أردنا أن نمثِّل لذلك، ما يترنم به الأخوة الإنجيليون في عيد تجسد الرب يسوع:

- رَنَّ صوتٌ في الأعالي — يا تُرى ماذا الخبر ... إلخ

أو

جاء يسوع وتم السرور .... الخ.

مثل هذه الترتيلة لا تؤكد -مثل غيرها- على اتحاد أقنوم الله الكلمة بالإنسانية (الناسوت)، ومجيء الكلمة لكي يحيا بيننا. وهكذا ضاع التجسد.

إن مجمل هذه التراتيل هو مجرد وصف لعلاقة خارجية بالرب يسوع، تخلو من الاتحاد الشخصي بالمسيح.

وعندما واجهتُ أحد زعماء الكنيسة الإنجيلية في مصر بخصوص سر الإفخارستيا، قلت له إن كل حديث عن دم المسيح، لا يصل إلى كأس العشاء الرباني كدم حقيقي، ينبغي علينا أن نصنِّف هذا التعليم تحت بند تاريخي اسمه "تعليم الموعوظين"، وهو التعليم الذي يُعِدُّ ولا يقوِّم؛ لأن التقويم يتم بعد نوال الاستنارة في المعمودية. وهكذا يتحوَّل القبطي الأرثوذكسي -عندما يترك أم الشهداء ويذهب إلى قصر الدوبارة- من مؤمن إلى موعوظ.

عندما يقف "دمُ المسيح" عند العظة، دون أن يأخذ وضعه الطبيعي باعتباره هبة وعطية المسيح في كأس الشكر، فإن الذي يحيا الحياة المسيحية لم يتَّحد -بعد- بالمسيح اتحاداً حقيقياً، بل -فقط- يعرفه عقلياً، حتى وإن كان يؤمن به حقاً، ولكن هذه المعرفة

تسير في اتجاه مضاد لمن أسس الاتحاد به وبالآب عندما "صار جسداً" وحل أو سكن بيننا "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (متى ٢٨: ١٩)، فهذا الوعد ليس وعداً لفظياً عن حضور نعرفه عقلياً –رغم أننا نعرفه فعلاً عقلياً– بل هو حضور كياني.

جسد المسيح الحي، لا توجد فيه أعضاء ميتة

ولا يقف الأمر عند كأس الشكر ودم الرب هبة الحياة الأبدية، بل الصلب والمصلوب ... فكل التراتيل الإنجيلية مثل:

قد قضى ديني كله الحمل ..... الخ.

ليس لها أساس في الكتاب المقدس، مثل تلك ترتَّل بفمٍ وبصوتٍ مرتفع يزعج ملائكة السموات.

مديون أنا مديون...

لأن هذا التعبير غائب من العهد الجديد، وإن ورد في الصلاة الربانية بشكل مجازي: "اترك لنا ما علينا" حسب الأصل الأرامي والقبطي، فإن ما يُترك هنا ليس الدين، بل حلِّ الرباطات.

هكذا خرج الصليب والمصلوب من الحياة المسيحية خروجاً جعله يُدفن في ملفات التاريخ، يعود إليه السامعون، بالذاكرة وحدها، وبالكلمة. ومع غياب لاهوت الروح القدس مُعلِن الابن، وإن كان قد عاد –بعنفٍ ظاهر– في الحركة الخمسينية بعد غياب امتد من يوحنا كالفن (ق ١٩) حتى مطلع القرن الـ ٢٠، إلَّا في كتابات المتصوفين Mystics–، أصبح الصليب قضية عقلية مدفونة في التاريخ القديم، لا حقيقة البذل الدائم التي جعلت رسول الرب يقول بعد عدة سنوات من صلب المسيح: "مع المسيح صُلبت" (غلا ٢: ٢٠)، وهكذا غابت خدمة الثالوث لنا، وخدمتنا نحن للثالوث.

وقد بدأ الانكسار التاريخي بالانفصال عن الكنيسة الأم، وهي أصلاً كنيسة روما التي حاربتها حركة الإصلاح في القرن الـ ١٦ ومن هنا، عندما نشأت كنائس أخرى خارج الكنيسة الأم، كان من الضروري التنكر التام للتاريخ القديم، وسادت عبارة شيطانية مؤداها أن المسيحية بدأت بالرسول بولس ثم عادت إلى الظهور على يد لوثر، وكأن تاريخ ١٦٠٠ سنة من عمر المسيحية كان تاريخ موت.

و"عبادة الأموات" جاء شعاراً لبتر التاريخ، ولتبرير الانفصال عن الكنيسة الأم، ونحن هنا نقصد كنيسة روما، التي هاجمتها في تلك الحقبة حركة الإصلاح بكل عنف، وبخداع البسطاء أحياناً بإطلاق شعارات غير تاريخية مثل هذا الشعار.

وجاء المبشرون إلى مصر وأسسوا كنائسهم، وضم هؤلاء ما استطاعوا من الأقباط الأرثوذكس وكانت هجمات متوالية انحسرت منذ ٥٠ عاماً، والسبب الأساسي هو نهضة التعليم في أم الشهداء والردود التي كُتبت وظهور القديسين. ولكن كانت محاولات اقتلاع كل ما هو صحيح وتاريخي مع ما أُضيف إليه من مستنقع العصر الوسيط تدور في كل جيل ابتداءً من كتاب "ريحانة النفوس" للقس شنيدر إلى كرازة سامح موريس.

الاعتداء على تجسد الرب وصلبه وقيامته:

الحديث، أيُّ حديثٍ عن عبادة الأموات، هو حديثٌ قذر يحمل في طياته كراهية ظاهرة. هذه الكراهية امتدت إلى ثوابت وأساسات في المسيحية نفسها بغضِّ النظر عن الانتماء المذهبي.

وأول هذه الثوابت هي أنه **لا يوجد أموات في المسيح**، فكل الراقدين بيسوع هم أحياء، كما يقول رسول الرب: "لا أريد أن تجهلوا أيها الأخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم"، لماذا؟ "لأنه إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام فكذلك الراقدون بيسوع يحضرهم الله أيضاً معه" (أفسس ٤: ١٢-١٤)، فلا يوجد

موتى في الذي قال: "أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي ولو مات فسيحيا. وكل من كان حياً وآمن فلن يموت إلى الأبد" (يوحنا ١١: ٢٥-٢٦) ولذلك تطالعنا صورة هؤلاء الأحياء في يسوع في سفر الرؤيا.

بل لقد عاد هؤلاء الأحياء لمقابلة الرب على جبل التجلي: موسى وإيليا معاً. ويقول رب المجد نفسه: "أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح" (يوحنا ٨: ٥٦)، بل وبَّخ الربُّ الصدوقيين الذين ينكرون القيامة بأن الله ليس إله أموات، بل أحياء.

وعندما يوصف الشهداء والنساك والآباء بأنهم أموات، فإن الاعتداء على هذه الحقيقة الثابتة يكون ظاهراً حتى للأعمى، وأصبح للمقت والكراهية دور مدمر يسعى لتقويض حقيقة كتابية كبرى جاءت بتجسد الرب وصلبه وقيامته، وهي أن الذين "رقدوا في المسيح" هم أحياء.

هؤلاء إذن ليسوا موتى .. والافتراء واضح.

وثاني هذه الثوابت هي **وحدة جسد المسيح الكنيسة**. والكنيسة موضوعٌ ظلَّ غائباً من الوعي المعاصر إلى أن عاد بفضل كتابات الأب متى المسكين، ولكن يظل الوعي غير منفتح على الحقيقة الإلهية، وهي أن للمسيح جسداً واحداً، ليس هو جسده وحده الذي أخذه من القديسة مريم، بل جسده الذي يجمع فيه كل المؤمنين. وعبارة رسول الرب لا تحتاج إلى تعليق أو شرح: "لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد .. وجميعنا سُقينا روحاً واحداً" (١كو ١٢: ١٣).

الانضمام إلى جسد المسيح الكنيسة يتم بالروح القدس، وهو أحد عطايا الله في سر المعمودية. ولكن لا يوجد لدى هؤلاء سر اسمه "سر المعمودية"، بل "فريضة المعمودية". ورفض كلمة سر *Mystery* يعود إلى رفض لاهوت الكنيسة الكاثوليكية أصلاً. واستخدام كلمة فرض – *Ordinances* لتحل محل كلمة سر، يعني أن السرائر تحولت إلى فرائض، ولذلك شاع حتى تاريخ كتابة هذه السطور تعبير "فريضة العشاء

الرباني"، دون أي بحث عن لماذا أُختير هذا الاسم بالذات، إلَّا لمعاندة الكنيسة الأم، ورفض التعليم القديم جداً الذي لا علاقة له بروما وحدها، بل هو تعليم الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً.

فهل بعد الانضمام إلى جسد المسيح بالروح القدس يصبح ذلك العضو ميتاً؟ أليس هذا افتراضٌ شنيع نابع من بغضة شيطانية؟ كيف يصبح المؤمن بالمسيح الذي صار هيكلاً للروح القدس بعد انفصال جسده عن روحه، ميتاً؟ فالجسد حقاً في القبر، ولكن الروح التي نالت قوة القيامة، صار لها شركة في حياة الثالوث، بل تألَّهت بحلول روح يسوع فيها، فالروح القدس "الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم" (رو ٨: ١١)، ولذلك يكمِّل رسول الرب التعليم: "فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم" (رو ٨: ١١). ولكن شناعة الكراهية التي تبدو في فصل الراقدين، وهم الأحياء بالروح القدس في يسوع كأعضاء جسده عن الكنيسة، هذا الفصل له قصة قديمة سيئة السمعة، وهي تقسيم الكنيسة إلى كنيسة مجاهدة على الأرض تحت رئاسة بابا روما، وكنيسة منتصرة في السماء تحت رئاسة المسيح، في حين أن التعليم الرسولي هو "الجسد الواحد الكنيسة"، وهو الاعتراف بالإيمان في قانون الإيمان النيقاوي "كنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية" لا تقبل الانقسام؛ لأن الجسد الواحد له رأس واحد هو يسوع المسيح.

وثالث هذه الثوابت هو **وحدة السماء والأرض**، الذي يحاول البعض الاعتداء عليه باسم الكتاب المقدس. وقد بدأ هذا الانفصال بتقسيم الكون إلى ثلاث طبقات، وهو ما عبر عنه دانتي *Dante* (ق ١٤) في *Inferno* أي جهنم؛ لأن انقسام الكون إلى أقسام: الأرض – السماء – جهنم، ثم المطهر هو الصورة الشائعة في العصر الوسيط، وهي لا تزال عالقة بأذهان الكثيرين في الغرب حتى ساعة كتابة هذه السطور.

ذلك أن منظومة العصر الوسيط، كانت ولا تزال تقوم على تقسيم الكون، بل وتقسيم التاريخ واللاهوت. فالتقسيم هنا، هو منهج امتد إلى كل شيء، ليس فقط إلى

عصور الحضارة وتاريخ الثقافة، بل إلى اللاهوت نفسه ... وفي وسط هذا التقسيم لم تنل رئاسة المسيح على الكون المنظور وغير المنظور أي نصيب في الغرب إلَّا في كتابات النساك الذين لم يكن لهم صوت مسموع في التعليم مثل *Eckhart* الذي بُعث إلى الحياة الفكرية في الغرب، فقط في الـ ١٠٠ سنة الأخيرة. وطبقاً لهذا التقسيم، يرأس المسيح الكنيسة المنتصرة في السماء، والبابا يرأس الكنيسة المجاهدة. وقد حاول البعض بعث هذا التعليم في عصر الأنبا شنودة الثالث، ولكن يبدو أنه فشل.

لكن رب المجد يسوع المسيح هو الرأس الواحد حسب تعبير الرسول: "لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض" (أفسس ١: ١٠)، وقد عُرِفَ هذا التعليم الكتابي باسم *Recapitulation* وترك لنا الآباء ابتداءً من القديس ايريناوس (حوالي ١٥٠) الكثير عن الرأس الواحد الذي يجمع كل شيء. لكن الآباء –عند هؤلاء الذين امتلئوا بغضةً– ليسوا هم الشهود الأحياء، بل الأموات. فالشهود عندهم موتى، والذين جسَّدوا *Incarnated* الإنجيل ليس لهم وجود إلَّا في الذاكرة؛ لذلك هم في الحقيقة غرباء عن حياة الكنيسة، وأصبح الإنجيل كتاباً، لا رسالة حياة برهن الآباءُ على أنها رسالة حياة عندما تجسَّد تعليم الرب في أنطونيوس الكبير الذي سمع قول المخلص وباع كل أملاكه ليكون تلميذاً، وإلَّا فإن كلمات يسوع رب الحياة، تكون قد قيلت للشاب الغني وحده!

هكذا تبدو صورة التعليم، إذا جُمعت مفرداتها معاً، تكوِّن تلك السحابة القاتمة:

- المسيح معروفٌ على مستوى الذاكرة والإرادة.
- دم المسيح فكرةٌ في رأس أو عقل السامعين.
- الذين يؤمنون يموتون، وبالتالي ينفصلون عن المسيح رب الحياة.
- ليس للكنيسة وجود تاريخي يعود إلى الرب والرسل، فكل من جاء بعد عصر الرسل هو في عداد الموتى بمن فيهم رسل المسيح.

لكن يستحيل علينا أن نقبل أن تغلق دائرة الكراهية علينا باب الحياة في المسيح.

لاهوت الصلاة في الأرثوذكسية

اللاهوت ليس علماً، بل كما قال أوريجينوس، وعنه نقل إيفاجريوس: "اللاهوتي هو مَن يصلي بصوتٍ مسموع". لهذا لم نقرأ -لديهم- بالمرة كتاباً جيداً عن الصلاة وعن الاتحاد بالمسيح، بل طردت الكنيسة اللوثرية أكبر متصوف *Mystic* عُرف باسم يوحنا *Angelus Silesius 1624 – 1677* فانضم إلى الكنيسة الكاثوليكية. وهكذا تحولت الصلاة إلى دعاء – طلب – طلبة – حديث مع الله – توسل – شفاعة ... إلى آخر كل ذلك من عبارات تؤكد ما سبق وقلناه سابقاً عن العلاقة الخارجية مع الرب التي تفتقر إلى العلاقة السرائرية *Sacramental*.

والعلاقة السرية *Mystical* هي البُعد الغائب حتى من كتابات قبطية أرثوذكسية معاصرة، حاول الأب متى المسكين إعادته إلى الوعي الكنسي، ولكن الهجوم عليه منعه من الانتشار بسبب التمسك بمنظومة العصر الوسيط، وهي: الشرح العقلي للعقيدة مثل أن يقال إن السر الكنسي هو علامة منظورة تحتوي أو تشير إلى نعمة غير منظورة، وهو تعريفٌ عقليٌّ أجوف ينكر الاتحاد بالمسيح؛ لأنه -طبقاً لهذا التعريف- كل علامات السرائر: المياه – الميرون – وضع اليد ... إلخ لا تبقى إلَّا في الذاكرة. وهكذا يخلع التعريف السابق شركتنا في الثالوث، واستعلان الروح القدس الذي يعطي السرائر كلها؛ لأنه حال وساكن فينا ينير قلوبنا لمعرفة "سر المسيح".

بل أضاف التعليم المعاصر -عن جهل- اعتبار السرائر ليست هي الشركة في المسيح، بل وصِفَت، ولا تزال تصنف على أنها "وسائط النعمة". لكن سر الإفخارستيا بالذات لا يمكن أن يوصَف بأنه "وسيط نعمة"؛ لأنه هو يسوع المسيح ربنا ذاته جسداً ودماً ولاهوتاً. هكذا، بواسطة استعارة أسماء وتصنيفات لا تعرف عنها الأرثوذكسية شيئاً، انحرف مسار الأرثوذكسية عن الطريق الحي، طريق الاتحاد بالرب يسوع المسيح.

كذلك، لا تزال الصلاة توصف بأنها حديثٌ مع الله، وأنها طلبة وتوسل وشكر ... الخ وهي كلمات تصلح لليهودية، في حين أن معناها في المسيحية اتخذ بُعداً آخر بسبب نزول الابن إلينا متجسداً، وحلول الروح القدس فينا.

بل تجاسر البعض وفسَّر الصلاة من الكلمة العربية وجعلها "صلة". وهكذا غابت الثوابت التي وصلتنا من المسيحية الرسولية كما قدَّمها العهد الجديد، وكما شرحها معلمي الإيمان، **وهي شركتنا في حياة الثالوث**.

نحن نصلي لكي نبقى في الحياة الجديدة جداً التي استُعلِنت لنا في يسوع، ولكي نبقى في هذه الشركة الفائقة. وكل كلمة ننطق بها تعود إلى ثلاثة ثوابت:

الأول: الصلة، أي صلة الشركة التي بيننا وبين الابن الوحيد، والتي لا تُبنى على الكلمة فقط، بل على الروح القدس والسرائر؛ لأن هذه الشركة إذا ظلت مؤسسة على الكلمة وحدها، عُدنا إلى رتبة الموعوظين؛ لأننا عندئذٍ نحرم أنفسنا من عمل الابن وعمل الروح القدس في كياننا الإنساني المدعو إلى التجديد، والذي يؤهَّل للقيامة من الأموات وحياة الدهر الآتي.

الثاني: لا صلاة لنا بدون استدعاء "الملك السمائي الروح المعزِّي"، وهو ما تؤكده كل صلوات الليتورجية الأرثوذكسية؛ لأن الصلاة بدون الروح القدس هي تخلٍّ عن قيادة وعمل الروح القدس.

الثالث: الصلاة هي رؤية الحياة الأبدية نفسها هنا، وهي وإن كانت "عربوناً"، إلَّا أننا نصلي لنبقى في الحياة الأبدية، ولذلك نترك الأمور الزمنية كلها، وهو ما جرى ترتيبه في الحياة النسكية التي باتت هي بدورها في حاجة إلى من يدافع عنها أمام هجوم بغضة غريب.

الصلاة المسيحية في جوهرها هي استعلان وحدة السماء والأرض:

بحكم نشأة حركة الإصلاح، وبحكم ظهور عدة انقسامات منذ بداية الحركة في القرن الـ ١٦ تمثلت ولا تزال في انفصال الفرد عن الجماعة، والانتماء الفردي بقرار فردي، وهكذا وُلِدت النظرة الإنجيلية للإيمان الشخصي للفرد، وصارت الصلاة هي جهد الفرد، ومساهمة الفرد في حياة الجماعة. ولكن لم ينشأ بالمرة لاهوت خاص بالصلاة، يؤكد أن الصلاة هي حياة شركة الجماعة، وأن الجماعة أعضاء جسد المسيح الواحد متضامنون ومتحدون في الحياة وفي الخلاص وفي نوال عطايا الحياة الجديدة. ومع أن الإصحاح ١١ من العبرانيين يقدم شهادةً عن إيمان عدد من الأفراد ابتداءً من إبراهيم، إلَّا أن هؤلاء الأفراد كانوا قادةً لشعب، بل تؤكد الرسالة أن هؤلاء جميعاً "لا يكملوا بدون المؤمنين بالمسيح" (عب ١١: ٤)، ثم يضع الرسول حياة الشركة كأساس: "نحن أيضاً إذ لنا سحابة من الشهود مقدار هذه محيطة بنا .." (عب ١٢: ١)، فالكنيسة كانت جماعتين: الرسل الاثنى عشر، ثم الـ ٧٠، وعاشت طوال التاريخ شركة كل المؤمنين في حياةٍ واحدة، وهدف واحد، ومصير واحد، وهو الحياة الأبدية، وإيمان واحد، ومعمودية واحدة، وهذا ما يطلبه رسول المسيح من الجماعة، أن يسلكوا كما يحق للدعوة التي دُعُوا إليها (راجع أفسس ٤: ١)، طالباً حفظ وحدانية الروح برباط السلام، "جسد واحد روح واحد كما دُعيتم إلى رجاء دعوتكم الواحد"؛ لأن المسيح رب المجد جاء لكي يملأ الكل (أفسس ٤: ٣-١٠). وتوزيع هبات الحياة الجديدة هو توزيع يؤكده الرسول نفسه:

- لأجل تكميل القديسين
- لعمل الخدمة
- لبنيان جسد المسيح
- على أن ننتهي جميعاً إلى وحدانية الإيمان

- بل صادقين في المحبة تنمو (كجماعة وجسد واحد) في كل شيء إلى ذاك

- الذي هو الرأس المسيح

- الذي منه كل الجسد مركباً معاً

- يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة (افسس ٤: ١٢-١٥).

ولا نجد في رسائل القديس بولس رسالةً إلى أفراد إلَّا في مناسبات خاصة مثل رسالة فليمون. وحتى الرسالتين إلى تيموثاوس، هما رسالتان للجماعة، وكذلك تيطس.

لكن غلبة المنهج الفردي الذي ولِدَ أصلاً على أرض الانقسام، غَلَبَ وساد وأعمى حياة هؤلاء، فلم ينشأ لاهوت خاص بالصلاة كحياة للجماعة التي تتحد في الصلاة. وحتى سر المعمودية، فهو وإن كان سر قبول الفرد، ولكنه يُقبل لكي يكون عضواً في الجسد الواحد (١كو ١٢: ١١-١٣). ولا داع لأن نذكِّر القارئ بأن عشاء الرب هو عشاء الجماعة؛ لأن كلمات الرب واضحة، هي ليست للفرد، بل هي للجماعة:

- خذوا كلوا هذا هو جسدي

- خذوا اشربوا هذا هو دمي

على هذا الأساس الإلهي بالذات، يطلب الرسول بولس الصلاة من أجله، وهو يصلي من أجل كل الكنائس التي خدم فيها (راجع كولو ١: ٣ —كولوسي ١: ٩)، بل يطلب الصلاة من أجل أن يفتح له الرب باب الخدمة (كولو ٤: ٣ — افسس ٥: ٢٥ — ٢ تس ١: ١١ — ٣: ١ والعبرانيين ١٣: ١٨): "طلبة البار لها قوة عظيمة" (يعقوب ٥: ١٦)، فلماذا يقول بولس: "أُصلِّي من أجلكم دائماً" (رو ١: ٩)، بل يقول في صراحة واضحة: "أطلب إليكم أيها الأخوة بربنا يسوع المسيح (حرفياً أتوسل في ربنا يسوع المسيح) وبمحبة الروح أن تجاهدوا معي في الصلوات من أجلي إلى الله لكي أُنقذ

من الذين هم من غير المؤمنين في اليهودية (المتطرفين من اليهود الذين كانوا يسعون إلى قتله) ولكي تكون خدمتي لأجل اورشليم مقبولة عند القديسين حتى أجيء إليكم بفرح بإرادة الله واستريح معكم. إله السلام معكم أجمعين" (رو ١٥: ٣ – ٣٣).

لاحظ أيها القارئ الذي لا زال يرزح تحت سلطان المنهج الفردي، أن الرسول يطلب في المسيح يسوع وبمحبة الروح القدس، والمسيح والروح هما الذين يجمعان الكنيسة، ولكن ما غاب عن لاهوت حركة الإصلاح منذ القرن الـ ١٦ وحتى تاريخ كتابة هذه السطور هو:

– أن تجاهد الجماعة من أجل بولس في الصلاة، وأن تكون على استعداد أن تقبل نتائج الصلاة.

– أن تكون خدمة بولس مقبولة لأنه يجد مقاومة ويحتاج إلى تعضيد.

وهذه هي عبارات الرسول السابقة، ولدينا ثلاثة أسئلة هامة لأصحاب المنهج الفردي:

السؤال الأول: ألم يكن الرب يسوع يعرف حالة بولس واحتياجات بولس؟ بكل تأكيد هو يعرف، ولكن الكنيسة تقف معاً في "وحدانية الروح"، ليس لأن المسيح يتأخر أو لأنه قاسي القلب، ولكن لكي تعطى النعمة، وتُستعلن للكل، ويقبل الكل نتائج الصلاة من أجل بولس.

والسؤال الثاني: إذا كان بولس قد دُعي من الرب يسوع بشكل مباشر للخدمة والكرازة ونال رؤيا في طريقه إلى دمشق، فلماذا يطلب أن تكون خدمته مقبولة عند القديسين؟ من المفروض أن يسهل له الرب يسوع كل عقبة، ولكن ما أكثر العقبات التي واجهت بولس، فقد جُلِدَ من اليهود خمس مرات، قبلتُ أربعين جلدة إلَّا واحدة (عقوبة القانون الروماني)، ثلاثة مرات ضُرِبتُ بالعصى (حسب المشنا هي عقوبة كل من يتكلم ضد شريعة موسى)، مرةً رُجِمت، ثلاث مرات انكسرت بي السفينة، ليلاً ونهاراً قضيت في

العمق بأخطار سيول – لصوص – من بني جنسي (اليهود)، من الأمم. وباقي ما تعرض له الرسول تراه كله في (٢كو ١١: ٢٣-٢٧).

إن ما غاب -أيها الأحباء- عن لاهوت العصر الوسيط هو وعيه بصراع الكنيسة في عالمٍ يحارِب المسيح، وهي حربٌ معلَنةٌ على مستوى السماء أولاً، ونراها في الأحداث التي تحدث على الأرض. إنها ليست مصارعة مع لحم ودم، بل مع الرؤساء مع السلاطين (وقد يكون كل هؤلاء هم القوى السياسية والاجتماعية)، ولكن مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحية في السماويات" (أفسس ٦: ١٣). وبعد أن حصر رسول المسيح هذا الصراع، يقول: "مصلِّين بكل بصلاة وطلبة كل وقت في الروح، وساهرين لهذا بعينه بكل مواظبة، وطلبة لأجل جميع القديسين، ولأجلي لكي يعطى لي كلام عند افتتاح فمي لأُعلِّم بسر الإنجيل الذي لأجله أنا سفيرٌ في سلاسل. لكي أجاهر فيه كما يجب أن أتكلم" (افسس ٦: ١٨-٢٠).

وبولس لا يأتي من ظلام التاريخ القديم، بل حسب الترتيب الرسولي نفسه، ما يرد تحت اسم "شفاعة القديسين" هو الوحدة في الإيمان التي تجمع الكنيسة كلها مع كل المعلِّمين. هذا يظهر في الترتيب الرسولي القديم جداً الذي يُعرف باسم "شفاعات القديسين" التي تسبق قراءة رسائل القديس بولس، والصلاة التي تُقال تكشف معنى هذه الشفاعات:

> "يا رب المعرفة ورازق الحكمة .. أيها المسيح إلهنا .. انعم علينا وعلى شعبك كله بعقل غير منشغل وفهم نقي، لكي نعلم ونفهم ما هي منفعة تعاليمك المقدسة التي قُرئت علينا الآن من قبله (أي بواسطة بولس نفسه)".

ولأن القارئ يتلو شهادة بولس الحي العضو الحي في الكنيسة، ولذلك تقول الصلاة:

"وكما تشبَّه بك أنت يا رئيس الحياة، هكذا نحن أيضاً اجعلنا مستحقين أن نكون متشبِّهين به في العمل والإيمان، ممجِّدين اسمك القدوس ومفتخرين بصليبك كل حين .."

هذه الكلمات لا تضع بولس كشاهد فقط يشهد للإيمان، بل كمثال، وتدعو إلى الافتخار بالصليب، وهو ما جعل الفنان القبطي عبر العصور، يقدِّم لنا ٣٦٥ شكلاً للصليب، صليب لكل يوم من أيام السنة.

السؤال الثالث: هل بولس شاهِد حي أم أنه مات؟ إن كان ميتاً، فشهادة الموتى لا يؤخذ بها. وإذا كانت كلمة الله "حية وفعالة"، فإن كاتب هذه الكلمة لا يمكن أن يكون في قبضة الموت.

الكنيسة أيقونة كاملة:

هكذا تكتمل الصورة أو الأيقونة المكوَّنة من أعضاء أحياء في المسيح يصلُّون معاً، كلٌّ من أجل الآخر، تحت الرأس الواحد الذي وحَّد السماء والأرض، وجَمَعَ الكل في جسد واحد .. ولذلك كم هو قذر، بل ويفيض بكل سماجة العداوة، وصف صلوات القديسين بأنها "عبادة موتى"، بينما جاءت كلمة "عبادة" من مصدر آخر غير مسيحي[1] وكلمة "موتى" من إنكار لتجسد الرب وموته وقيامته، ثم سيادة المنهج الفردي، وانقسام الكنيسة، وانفصال رئاسة المسيح ومحاصرة رئاسته في السماء فقط.

---

(١) ترجمة فان دايك التي أخذت بمصطلحات عربية غير مسيحية. وكلمة "عبادة" هي أهم هذه المصطلحات.

هل هذه عبادة موتى، أم صلاة أحياء في جسدٍ حي؛ إذ لا يموت عضو في جسد المسيح؟ ولكن، هكذا جاء سكين الاحتجاج البروتستانتي لينكر، ربما عن جهل:

١– تجسد الرب الذي جعل الكنيسة جسد المسيح الحي (١ كور ١٢ – ١٤).

٢– موت الرب المحيي وقيامته اللذان هدما الموت وأعطيا الحياة والخلود.

٣– وحدة الجسد الواحد تحت رأسٍ واحد هو الرب يسوع المسيح الذي يحيي جسده.

وهكذا تمت محاصرة رئاسة المسيح على الكون المنظور وغير المنظور وتحديد مكان إقامة الرب في السماء فقط.

الفصل الثاني

الشفاعة،

الاسم والمعني اللاهوتي الصحيح

يجب أن نميِّز بين استعمال كلمة "وسيط"، واستعمال كلمة "شفاعة، وشفيع". الأولى قاصرة على المخلص رب المجد يسوع المسيح، فهو الوسيط الوحيد.

كلمة "الوسيط" وردت ثلاث مرات في العهد الجديد:

- وسيط واحد بين الله والبشر (١ تيمو ٢: ٥)

- فهو وسيط عهد جديد (عب ٩: ١٥)

- يسوع وسيط (حرفياً الوسيط) للعهد الجديد (عب ١٢: ٢٢).

حرص فان ديك على استبدال معنى الكلمة اليونانية έντευξις من شفاعات إلى طلبات في (١تيمو ٢: ١ – فأطلب أول كل شيء ان تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس.." والترجمة الصحيحة هي:

- طلبات δεήσεις — Petition
- صلوات προσευχάς — Prayers
- شفاعات έντεύξεις — Intercessions
- تشكرات ευαριστίας — Thanksgiving

وقد شرح العلامة أوريجينوس في أول وأقدم مقال عن الصلاة هذه الفقرة بالذات فقال:

"الطلبات هي صلاة تقدَّم من أجل طلب خاص لإنسان ينقصه شيء ما، الشفاعات هي طلبات من أجل أمور خاصة وتقدم إلى الله بواسطة إنسان لديه جرأة أو شجاعة" (مقالة الصلاة ١٤: ٢).

ولكن غاب المعنى القديم عن "طلبة البار التي تقتدر كثيراً في فعلها" حسب ترجمة فان ديك، فالبار هو شفيعٌ يصلي، وهي الصلاة التي تقدم من أجل أمور خاصة. وقد واجه المترجم صعوبة لأنه لم يقرأ الأصل اليوناني جيداً؛ لأن الرسول يكتب في (١تيمو ٤: ٥): "لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة"، بينما الأصل اليوناني يقول: "يقدس بكلمة الله والشفاعة διά λόγου θεού και ένεύξεως.

وحسب شرح العلامة أوريجينوس السابق، التقديس بكلمة الله والشفاعة، وهي الطلبة من أجل أمر خاص، وهنا الصراع مع الشريعة اليهودية التي تُحرم أطعمة معينة، ومع الغنوصية، وهم من وصفهم رسول الرب بأنهم مرتدون عن الإيمان تابعين أرواح مضلة وتعاليم شياطين .. مانعين عن الزواج (الغنوسيون) وآمرين أن يُمتَنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بشكر مع المؤمنين وعارفي الحق. لأن كل خليقة الله جيدة ولا يُرفض شيء إذا أُخذ مع الشكر، لأنه يقدَّس بكلمة الله والصلاة الخاصة بالتقديس أو الشفاعة أو الطلبة الخاصة. فكل طلبة خاصة هي شفاعة من أجل موضوع معين من أجل العالم كله، ولعلنا هنا يجب أن نذكر أن ما يُسمى بالأواشي هو شفاعة الكنيسة في الكون كله.

وتقديس كل شيء بكلمة الله، ليس بقراءة كلمة الله فقط، بل هو ما تعلنه الكلمة عن عمل الثالوث في الكون وفي الإنسان، أي عودة الخليقة في يسوع المسيح رأس الخلقة الجديدة إلى حياة جديدة مصدرها الثالوث نفسه.

وحتماً، كانت شريعة العهد القديم تحرِّم أطعمةً معينةً، وتلاقت، بل وجد هذا صدى مريحاً عند أقطاب الغنوسية الذين حرَّموا اللحوم والأسماك، وكل ما هو حيواني؛ لأن هذه الأجسام الحيوانية هي أجسام الساقطين من البشر الذين عادوا إلى الحياة في شكل حيواني، للتوبة.

بالطبع، اليهودية لا تقبل تناسخ الأرواح مطلقاً، ولكن تحريم أي طعام يقدمه "الأممي"، أو يُذبَح بيد أممي، يحول مبدأ التحريم نفسه إلى ذات الأرضية المشتركة بين اليهودية والغنوصية.

الوسيط الواحد هو الكاهن الوحيد

في المؤلفات اليونانية الكلاسيكية السابقة على انتشار المسيحية، الوسيط هو شخصٌ محايد يقف بين طرفين يساعد على وضع حدٍّ لخلاف بينهما، هو محايد *Neutral* وليس طرفاً في النزاع نفسه. جمع النصوص عدد كبير من علماء الديانات المقارنة والآداب اليونانية القديمة، وقدم ملخص واف لها، المجلد الرابع من القاموس الخاص بالمصطلحات اللاهوتية للعهد الجديد ابتداءً من ص ٥٩٩ وما بعدها.

بالطبع، هذا المعنى لا ينطبق على أسفار العهدين؛ لأن موسى الذي وقف وسيطاً لم يكن محايداً رغم ما يمكن أن نراه في النصوص. فهو، أي الوسيط، بلغة القانون *Arbiter* حَكَمٌ محايد. ولذلك لا يوجد فعل خاص في يونانية العهد الجديد عن عمل الوسيط وهو فض نزاع أو التوسط بين طرفين، فالفعل يتوسط μεσιτεύω غير معروف في السبعينية، والاسم ورد مرةً واحدة في سفر أيوب (٩: ٣٣). ولماذا تغيَّر المعنى في ترجمة فان ديك من "وسيط" إلى "مُصالِح"، فهو حسب فان ديك: "ليس بيننا مصالح يضع يده على كلينا"، والصحيح أو الصواب: "ليس بيننا وسيط يضع يده .."؛ لأن الرب ليس مصالحاً لإله غاضب هو الآب، وهو ما دسَّه "فان ديك" ليس في هذا النص فقط،

بل أيضاً في رو ٨: ٣٢ فترجم النص إلى: "الذي لم يشفق على ابنه"[١]، فصار عدم الشفقة من صفات الآب، أو من أعماله؛ لأنه غاضب على الإنسانية. لكن الوسيط هنا يجمع في كيانه الله والإنسان معاً في شخصه الإلهي المتجسد، فهو ليس مصالحاً محايداً، بل وسيطاً في محبة لا نهائية، يجمع الله والإنسان في شركة أبدية.

وحتى عندما استخدم رسول الرب فعل "المصالحة"، فقد استخدمه استخداماً خاصاً بالثالوث: "إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه ..." (٢ كور ٥: ١٩). فالمسيح إذن ليس "وسيطاً" بالمعنى اليوناني الكلاسيكي، أي هذا الشخص المحايد؛ لأن الله الكلمة هو:

– اللوغوس خالق كل الأشياء، والذي بدونه لا وجود لهذه الكائنات، فهو ليس محايداً، بل خالقاً.

– ولأن الصلاح والجود والمحبة لا تعرف الحياد.

غلاطية ٣: ١٩–٢٠

يكتب رسول المسيح "لماذا الشريعة؟ قد زيدت بسبب التعديات إلى أن يأتي النسل (المسيح) الذي وُعِدَ له، مرتباً بملائكة في يد وسيط. وأما الوسيط فلا يكون لواحد (إذ هو يقف بين طرفين متنازعين) ولكن الله واحد (الوسيط هو الله) (غلا ٣: ١٩: ٢٠)، وقد أضفنا كلمات بين الأقواس لإيضاح المعنى. فقد سبق الله وأعطى الوعد بالبركة لإبراهيم ثم جاءت الشريعة بعد ذلك. ومجيء الشريعة بواسطة موسى لا تلغي الوعد بالبركة. ومن يدرس غلاطية جيداً يجد أن الشريعة الموسوية قد فقدت مكانها تماماً في

---

(١) راجع الترجمة العربية الجديدة التي أصدرتها دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٩٣، وقد ورد نص رو ٨: ٣٢ هكذا: "الله الذي ما بخل بابنه، بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً، كيف لا يهب لنا معه كل شيء؟". وفي الترجمة الكاثوليكية التي نشرتها دار المشرق في بيروت – لبنان، ١٩٨٩م ورد هذا النص هكذا: "إن الذي لم يضن بابنه نفسه، بل أسلمه إلى الموت من أجلنا جميعاً، كيف لا يهب لنا معه كل شيء؟"

العهد الجديد، فهي لا تنظم أي علاقة بين الله والإنسانية؛ لأن الدعوة في العهد الجديد تفوق كل ما وعد الله به في العهد القديم.

الملائكة هنا هم الأنبياء؛ لأن كلمة ملاك تعني رسول ومُرسل من الله للخدمة، وهو ما ينطبق على الأنبياء والملوك والقوات السمائية أيضاً. وموسى ليس هو الوسيط لأنه لم يأتِ بالوعد الإلهي، بل جاء بالشريعة، وهي لم تكن بالمرة الوسيط، بل كانت في مجملها تحكم على من يعتدي، فلا المعنى اليوناني الكلاسيكي المحايد ينفع، ولا المعنى القانوني الروماني الحَكَمَ *Arbiter* يصلح؛ لأن ذات التعليم يظهر بنفس المعنى في (١ تيموثاوس ٢: ٥-٦): "لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع ..". وهنا لا يجب أن نخطئ في فهم عبارة "الإنسان يسوع المسيح"؛ لأن تحديد الواحد، وهو الإله الواحد، هو نفسه تحديد الوسيط الواحد الإنسان يسوع، والإشارة إلى إنسانية المسيح يسوع هي تعبير دقيق عن بذل الذات "فدية لأجل الجميع"، وهو الموت على الصليب.

وسيط عهد أفضل (عب ٨: ٦) وسيط عهد جديد (عب ٩: ١٥ مع عب ١٢: ١):

الخطأ الأول: الشائع عندنا هو فصل الوسيط عن العهد الجديد؛ لأن أعظم ما جاء به الوسيط هو ما يفوق العهد القديم كله، وهو "صار يسوع ضامناً لعهد أفضل" (عب ٧: ٢٢). والضمان هنا ليس ضمان مصالحة أو غفران فقط، بل بقاء العهد مفتوحاً لكل الخطاة عبر كل العصور. هنا الوعد ليس لفظياً، ولا هو نبوة، بل هو شخص رب المجد نفسه، هو "الضامن"، وقد دخلت هذه الكلمة في الكتابات المسيحية القديمة مؤكدة فاعلية العهد لأنه عهد شخص حي غالب.

الخطأ الثاني: الشائع هو تجاهل إلوهية الوسيط؛ لأنه لم يكن حَكَمَاً بيننا وبين الآب، بل هو خالقٌ مع الآب (يوحنا ١: ١-٣)، بل هو هنا الواهب العهد نفسه،

والعهد بدم يسوع هو عهد أبدي (عب ١٣: ٢٠)، نال زخم وقوة القيامة. تأمل عبارات الرسول نفسه: "وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع المسيح بدم العهد الأبدي" (عب ١٣: ٢٠)، فالله الذي صالح الكل لنفسه في يسوع المسيح (٢كو ٥: ١٩، كو ١: ٢٠)، هو إله السلام، ليس إله الغضب والانتقام الذي صب انتقامه على الابن –كما يدعي مطران دمياط ومن قبله الأنبا شنودة الثالث تابعين لاهوت العصر الوسيط– بل من أجل أبدية العهد وضمان بقاء العهد الأبدي، قام يسوع، فصار العهد أبدياً بالدم، أي بحياة يسوع؛ لأن الدم = حياة.

إلوهية المخلص هي أساس وساطته، وكان يجب على الذين كانوا يعلِّمون بالشفاعة الكفارية أن ينقلوا التعبير إلى "الوساطة الإلهية"؛ لأن الله وحده هو الوسيط عند الله، وهو ما أعلنه الرب أثناء خدمته بغفران الخطايا دون تقديم ذبائح" (مرقس ٢: ١ لوقا ٧: ٣٦ – ٥٠). وفي مثل الابن الضال الذي أرعب الفريسيين، كان الغفران للابن الضال مضاداً لحكم الشريعة، ولكن يسوع رب المجد هو الإله المخلص، وإلوهيته هي أساس حريته.

وسيط العهد الجديد والأبدي، ومنظومة العصر الوسيط:

حتماً ولابد من مواجهة تطرف بعض المعلِّمين الأصوليين الذين يظنون أن الدفاع عن شفاعة القديسين هو اعتبار هؤلاء القديسين وسطاء لدى الرب يسوع .. سمعت هذا عدة مرات، وحاولت المراجعة والتصحيح، وجاء الاتهام بأنني لا أؤمن بشفاعة القديسين .. لكن الحقائق الأبدية التي لا يمكن أن نراهن عليها أو نتجاهل قوتها وفاعليتها هي:

– إن يسوع وحده هو الوسيط؛ لأنه جاء من عند الآب، ولأن الآب أرسله لخلاص العالم، والاسم نفسه يسوع، هو خلاصة البشارة؛ لأنه يعني المخلص، ولا داعي لوضع آيات العهد الجديد فهي معروفة.

– حلَّ يسوع محل الشريعة والذبائح والهيكل والكهنوت، أي هو العهد الجديد، فهو ليس شريعة، بل حياة. وهو الذبيحة والكاهن معاً، وهو مُقدم الذبيحة، وهو الهيكل الأبدي الذي يحل في إنسانيته كل "ملء اللاهوت" (كولوسي ٢: ٩)، وهو الذي جعلنا –بتجسده– هيكلاً للروح القدس؛ لأن الله يحل فينا.

– لا توجد ثنائية بين يسوع والنعمة، فهو النعمة وهو الحياة وهو القيامة، وهو كل ما لدينا في هذا الدهر وفي الدهر الآتي من خلاص وحياة وغفران وقيامة وتبنٍ وميراث الملكوت، فهو أيضاً واهب الروح القدس لنا من عند الآب، لا بديل ولا يوجد آخر يمكنه أن يأخذ مكان الوسيط مهما كان هذا الآخر.

الوسيط الوحيد والكاهن الوحيد:

جاء العصر الوسيط بتعليم ازدواجية الكهنوت: الكاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق يسوع المسيح، والأسقف بشكل خاص، ثم تراتبية، إذ يلي الأسقف، القس، ثم الشماس (الدياكون). واضح هنا أنه ضاع من الوعي أن يسوع المسيح هو الكاهن الوحيد، وأنه لهذا السبب لا توجد هذه التراتبية *Hierarchy* في الأرثوذكسية، وأن هؤلاء: الأسقف والقس والشماس، إنما يخدمون كهنوتاً واحداً هو كهنوت يسوع. وغير خافٍ على أحد أن هذه التراتبية قلبت موازين كل شيء:

١– فقد جعلت خدمة الكهنوت في الكنيسة خدمة شخصية، يقوم بها شخص، هو أرفع مقاماً من الشعب. بينما خدمة الكهنوت هي ذات خدمة الرب يسوع نفسه. وهو ما تؤكده صلوات الرسامات في كل الكنائس الأرثوذكسية، بل وهو الذي حفظته الأوشية في قداس مار مرقس: "أُذكر يا رب هذا الكهنوت المقدس الذي لك". وحفظه التسليم الليتورجي، إذ أن الواقف عند المذبح (الواقفون عند المذبح) جميعاً يقولون عن الرب يسوع أنه هو الذي أخذ الخبز، وهو الذي كسر وبارك، وهو الذي قال؛ لأنه من نافلة القول أن نذكِّر القراء بأنه لا يستطيع أحد أن يقدِّم جسد يسوع إلَّا يسوع

نفسه، فهو وحده الذي له السلطان على أن يقدم هذا الجسد؛ لأنه جسده الخاص، وهو الذي قال: "لي سلطان أن أضعها وسلطان أن آخذها، هذه الوصية قبلتها من أبي" (يوحنا ١٠: ١٨). ولذلك السبب بالذات، تقدم الكنيسة الخبز والخمر للرب نفسه تقدمة حرية واختيار؛ لكي تنال -بالتقدمة- الجسد والدم؛ لأن تقديم القربان ليس فقط طاعة محبة الكنيسة للرب، بل هو تأكيد على كهنوت المسيح؛ لأنه هو الفاعل والموزِّع جسده على المتناولين، وحرية تقسيم وتوزيع الجسد الذي تقوم به كل الكنائس هي شركة الكنيسة في كهنوت الرب يسوع بواسطة المختارين لهذه الخدمة الإلهية السرية الفائقة.

٢- أدخلت هذه التراتبية أيضاً فكرة وساطة الكاهن بين الثالوث والشعب في العصر الوسيط، فصار لاهوت السرائر يُفهَم على أساس آخر، وهو أن السرائر هي عطاء الكهنوت، وبسلطان الكهنوت. وهكذا نقلت الكتب الأرثوذكسية تعبير "سلطان الكهنوت" من المراجع الكاثوليكية العربية للمرسلين الكاثوليك، بينما تحرص كل القداسات الأرثوذكسية في كل مكان من العالم على أن تؤكد أن حتى استدعاء الروح القدس، إنما يتم بالصلاة، ومَن يصلي ليس له سلطان، ومَن يطلب هو من لا يملك، ولكن الصلاة لها أساسها اللاهوتي الواضح، وهو ما يقوم به الكاهن يسوع المسيح.

اللوغوس خالق كل الأشياء، هو وسيط، كخالقٍ للكل:

لا يجب أن ننسى أن وساطة المسيح لها الأساس الإلهي السابق على تجسده؛ لأن حتى تجسد اللوغوس - الكلمة في الزمان والتاريخ والحياة الانسانية، مستحيلٌ بدون إلوهية الكلمة؛ لأن الكلمة وحده كخالق، هو القادر على أن يدخل دنيا وحياة الإنسان بحياة إنسانية حقيقية تأخذ من نسل إبراهيم في شخص القديسة مريم، وترفع ذلك إلى المستوى الإلهي الذي يعلو على الحدود العرفية *Ethic* الخاصة بالشعب القديم؛ لكي يمد حياته إلى كل البشر. هذا مستحيل على إنسان ولكنه هو واقع الكلمة المتجسد.

المسيح هو الفادي والملك:

لعل الذين يشتركون في الصلاة يوم الجمعة العظيمة يذكرون لحن "كرسيك يا الله" (مزمور ٤٥: ٦)؛ لأنه السلام الملكي *The Royal March* للكاهن والذبيحة والملك الذي جاء لكي يدخل مخاض الموت، ويرفع الدينونة كإله، وفي جسده يبيد الموت. جاء إلينا في المجد الإلهي المستعلَن في البشارة لمريم العذراء "قوة العلي تظللك" فهي *Shekinah* الشاكيناه التي كانت تحل على خيمة الاجتماع (خروج ٤٠: ٣٤-٣٨).

لكن التجسد صار هو خيمة الاجتماع الجديدة: "الكلمة صار جسداً وسكن بيننا" (يو ١: ١٤)، وإذا درسنا هذه الكلمات مع (يو ٢: ١٩ – ٢٢)، عن "هيكل جسده"، السلم بين السماء الأرض، يظهر لنا أن الوسيط جاء لكي يوحِّد في كيانه، أي **في شخصه أو أقنومه** السماء والأرض معاً (أف ١: ١ – ٣).

وعندما يجمع الكل تحت رأسٍ واحد، يدخل "الملك الإلهي"، أو "ملكوت الله" دنيا الإنسان، دخولٌ لا ينتهي بالصعود، بل بالصعود يتوَّج سمائياً بعد أن أكمل تدبير الخلاص. وعندما تحدى الربُّ اليهود وقال لهم إن الهيكل سوف يُهدَم، ولكنه سوف يقيم الهيكل في ثلاثة أيام، وكان يتكلم عن هيكل جسده كما شَهِد يوحنا (٢: ١٩)، فإن هيكل جسده الذي "يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً" (كولو ٢: ٩)، فإن الكاهن الوحيد في هذا الهيكل، وهو "ملء اللاهوت جسدياً" هو مَن له ملء اللاهوت. وقد مُسِحَ هذا الهيكل بالروح القدس، و"دُشِّنَ" بعد خروج يسوع من مياه الأردن لكي يجمع عمل الروح المستعلَن في العهد الأول أو العهد القديم إلى عمله كفادٍ – ملك – إله متجسد – كاهن إلى الأبد على طقس ملكي صادق.

أعلن الكاهن سلطانه الإلهي بشفاء الأمراض – غفران الخطايا – إقامة الأموات (راجع على سبيل المثال لا الحصر مر ٢: ٣ — ١٢، مر ٩: ٢ — ٨، لو ٥: ١٨ – ٢٦)، وهكذا دخلت المسحة، أي مسحة يسوع في عمل يسوع في طرد الأرواح الشريرة

"بروح الله"، ولذلك قدَّم الرب يسوع ذبيحة حياته، أي جسده ودمه بالروح الأزلي، أو الروح القدس حسب قراءة كنيسة الإسكندرية لكلمات عب ٩: ١٣ – ١٤.

الذبيحة العظمى

الفعل θύω يذبح، ومكان الذبيحة هو المذبح (راجع لا ٤: ٧ – مت ٥: ٢٣، وأيضاً ١كور ٩: ١٣، ١كور ١٠: ١٨). دخلت هذه الكلمة "الذبيحة" من العهد الأول، أو القديم حسب الاسم الشائع، وكانت الذبائح تقدَّم في هيكل أورشليم في زمان الرب (متى ٥: ٢٣ – ٢٣: ١٨) وعندما كتب رسول المسيح كورنثوس الأولى كانت الذباح لا تزال تقدم في أورشليم (راجع بدقة ١كو ١٠: ١٦) ورغم أنه كان يتكلم عن ذبائح الأوثان إلَّا أن شركة المقدِّم في المذبح والذبيحة كانت تقتضي الابتعاد الكامل إذا كان يريد الاشتراك في ذبيحة الإفخارستيا، وقد أخذت هذه الكلمات حقها من البحث الاكاديمي. والمعارضة دائماً تأتي من الجانب الإنجيلي، والشيع التي تفرقت من المذهب الإنجيلي تعبِّر عن جهل بالخلفية التاريخية واللغوية (راجع في ذلك بحثاً جيداً جداً[1] للمؤرخ *W. Heitmuller* صدر عام ١٩٠٣ وقد تأخرنا عن الاستفادة بالأبحاث بسبب ندرة الباحثين والتضييق عليهم مالياً بواسطة الشعب نفسه، وبعض الإكليروس الذي يخاف من الدارسين). فقد حاصرت الشيع الإنجيلية كل السرائر: المعمودية – العشاء الرباني بالذات في دائرة عقيدة الفداء، أو ما يُعرَف بالبديل العقابي، أي أن يسوع المسيح هو الذي احتمل غضب الله الآب نيابةً عن البشرية، وأن هذا هو الخلاص برمته. أما السرائر، فما هي إلَّا تذكارٌ عقلي لِما تم في الماضي.

ولكن حجة الشيع تسقط أمام كلمات رسول المسيح نفسه: "المسيح فصحنا وقد ذبح لأجلنا" (١كور ٥: ٧)، وهي وإن كانت ذات مفردات العهد القديم، إلَّا أن هذه الشيع ترى أن الفصح تم يوم الجمعة الكبيرة، وهم بذلك يفصلون خميس العهد

---

(١) المعمودية والعشاء الرباني.

والسبت الكبير والأحد يوم قيامة الرب عما حدث في يوم الجمعة، وبذلك يدمرون تدبير الخلاص عن جهل وعن عناد؛ لأن فصح المسيح هو عشاء الرب الذي كان يقام في يوم قيامة الرب من الأموات، أي يوم الأحد.

ويعيد الرسول في (أفسس ٥: ٢) التأكيد على محبة المسيح، وفي عبارة تتحدى كل ما يقال من تجاديف معاصرة عن عقيدة الكفارة يقول الرسول: "كونوا متمثلين بالله كأولاد أحباء واسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح أيضاً وأسلم نفسه لأجلنا قرباناً وذبيحة لله رائحة طيبة"، فهل بعد ما قيل عن هذه المحبة العظمى، نقع في فخ ثنائية العدل والرحمة، وننسى المحبة.

ومن ذبيحة الرب نفسه جاء تعبير "الكهنوت الملوكي" (١ بط ٢: ٥). فعلى أساس كهنوت الرب وذبيحة الرب نفسه، نقدَّم نحن –حسب تعبير الرسالة نفسها– "ذبائح روحية مقبولة عند الله بيسوع المسيح".

بشارة الإنجيل في الرسالة إلى العبرانيين:

حسبما أعرف من واقع ما نُشر، ليس لدينا دراسات عن الرسالة إلى العبرانيين سوى تفسير الأب متى المسكين، وهي دراسة أكثر من جيدة جداً، وأيضاً عظات ذهبي الفم التي نُشرت عربياً بواسطة مركز دراسات الآباء.

رئاسة الكهنوت في العبرانيين تعبير لا يفترض وجود كهنة آخرين، والرب يسوع هو الرئيس حسبما شاع لدى البعض. ولكن الاسم "رئيس"، رئيس الكهنة، خاصٌ بيوم الكفارة العظيم، وهو يوم الجمعة، يوم الصلبوت كما نقول نحن.

ولاحظ: رئيس الخلاص (عب ٢: ١١) الذي أكمل الخلاص بالآلام، ومن هذا يبدأ الرسول في تقديم رئاسة كهنوت الرب في يوم الصلبوت، فيقول: "رئيس كهنة أميناً في ما لله حتى يكفر خطايا الشعب" (عب ٢: ١٧)، ويستمر التقديم في مقارنة رئيس

الكهنة يسوع بموسى (٣: ١) مؤكداً ان المسيح هو رب البيت وأننا نحن بيته (٣: ٦). ويصل يوم الكفارة، يوم الصلبوت بدخول رئيس الكهنة إلى السموات (٤: ١٤-١٥) مؤكداً أن هذه الرئاسة لم يأخذها بالوراثة، ولا طلبها بنفسه "المسيح لم يمجِّد نفسه ليصير رئيس كهنة، بل الآب الذي قال له أنت ابني أنا اليوم ولدتك .. أنت الكاهن على طقس ملكي صادق إلى الأبد. الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع طلبات وتوسلات للقادر أن يخلصه من الموت، وسُمِع له من أجل تقواه، ومع كونه ابناً تعلم الطاعة مما تألم به، **وإذ كُمِّلَ** صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي، مدعواً من الله رئيس كهنة على رتبة ملكي صادق" (عب ٥: ٥-٩).

كمال المسيح هو كمال الطبيعة الإنسانية فيه بالطاعة لله الآب.

ويصل بحث الرسول قمته في الاصحاح السابع عندما يبدأ بملكي صادق الذي أخذ العشور من إبراهيم، وهو "ملك البر ثم ملك السلام (٧: ٢)، الكاهن إلى الأبد، الذي لا يذكر العهد الأول – التوراة، شيئاً عن ميلاده وموته ولا عن السبط الذي انحدر منه، وهو "كاهن الله العلي – إيل عيلون)، أي إله الشعوب وليس يهوه إله إسرائيل. والذي درس سفر ربابنة[1] اسرائيل لسفر المزامير سوف يندهش من غياب أي تفسير جاد وكامل لمزمور ١١٠ الذي يذكر فيه المزمور ملكي صادق، وقَسَم الله، بل وسوف يندهش من عبارة: "قال الرب لربي اجلس عن يميني"، فقد تجاوزها علماء إسرائيل؛ لأنهم لم يفهموها، ولما استُعلِن معناها في يسوع، تركوها بلا تفسير. وهنا يدخل الإصحاح السابع في صميم الموضوع:

- عجز الكهنوت اللاوي.
- وحدانية الكهنوت بالشريعة ؛لأن الشعب قَبِلَ الشريعة بكل ما فيها من تفاصيل على أساس خدمة الكهنوت (اللاويين والتثنية).

---

(١) يعد سفر الرباي مسعود (من العراق ق ١٥)، هو آخر ما وصلنا من شرح المزامير. وقد ترك الرباي مزمور ١١٠ بلا تفسير. تأمل!

– تغيَّر الكهنوت في العهد الجديد، عهد يسوع الأبدي، وبالتالي يصير تغيُّرٌ في الشريعة (٧: ١٢). ولم يفهم الذين يصرخون بأن ذبائح العهد القديم كانت رمزاً لذبيحة المسيح، بأن تغيُّر الكهنوت يعني تغيُّر الذبائح بذبيحة واحدة، وهو ما أشار إليه الرسول في الإصحاح العاشر مؤكداً إن الله لم يسر بذبائح الخطية والقربان والمحرقات (١٠: ٥)، بل يقول صراحةً: "إن الله لم يريدها"، وهو ما تؤكده افتتاحية سفر اللاويين، إذ تقول: "إذا قدَّمت" (لا ١: ١)، وهو ما شرحته الدسقولية بأن تقديم الذبائح لم يكن بوصية. (١ كو ٥ – راجع ذهبي الفم، العظات ضد المتهودين، عظة ٤: ٦ ص ٩٠ من الترجمة الإنجليزية، وأيضاً عظة ٣: ٣ ص ٥٨).

الوسيط الكاهن الابن الوحيد للآب:

سبق لنا أن قدمنا دراسة مطولة عن موت الرب يسوع المحيي على عود الصليب، نُشرت على موقع الدراسات القبطية، ثم طُبعت بعد ذلك، تعرضنا فيها لهذا الموضوع تفصيلاً، ولكن ينبغي لنا هنا أن نشير إلى أن الوسيط جاء ليس بالذبيحة، أي كيانه أو أقنومه الذي يقدِّمه هو نفسه للآب، بل جاء بعطية الروح القدس فهو يقول: "أنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم ان يقبله لأنه لا يراه .. أما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم" (يوحنا ١٤: ١٥-١٧).

نحن نقبل الروح القدس من يسوع، وبدون يسوع لا علاقة لنا بالروح القدس؛ لأن إزالة كل العوائق التي تمنع الروح القدس من العمل فينا وحلوله فينا، ستبقى دائماً عمل رئيس الكهنة والذبيحة معاً في الأقنوم الواحد ربنا يسوع المسيح.

مما سبق، وهو اختصارٌ شديد جداً حتى لا نخرج عن الموضوع الأصلي، يظهر لنا أن الرب يسوع هو الوسيط الذي لا يمكن لآخر –مهما كان– أن يشترك معه في وساطته، بل بكل جرأة نقول حتى الروح القدس الأقنوم الثالث لم يعمل منفرداً من ذاته،

بل يعمل على أساس ما حققه الكاهن – الوسيط – الملك – الذبيحة – فهو كما قال الرب: "ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويعطيكم" (وردت يخبركم في بعض النسخ، ولكن حسب القراءة الاسكندرانية: يعطيكم) (يوحنا ١٦: ١٤)، ولذلك لا شفيع ولا وسيط يقربنا إلى الله الآب سوى المسيح يسوع؛ لأن لا أحد أزال الموت — اللعنة — الخطية — مقدم المصالحة والتبرير والتقديس والحياة الأبدية وميراث الملكوت والتبني، سوى رب المجد يسوع المسيح. هكذا يجب أن نفهم أننا في الوسيط لنا شفاعة، وهي شفاعة من يمثل الإنسانية كرأس، وهنا ننبه إلى أن استخدام كلمة "نائب" عن الإنسانية لم ترد في العهد الجديد، بل رأس الكنيسة جسده.

* هو خادم الأقداس الحقيقية، والمسكن الحقيقي الذي أقامه أو نصبه الرب لا إنسان (عب ٨: ١)، أي جسده، وهو الكنيسة؛ لأن البشر ليسوا مخلوقين بواسطة بشر، ولذلك جاء يسوع بخيرات أعظم وهي خيرات الحاضر والمستقبل أيضاً (عب ٩: ١١).

* "ليس بدم تيوس وعجول .. بل بدم شخصه دخل إلى السماء قدس الأقداس فحقق الفداء الأبدي (عب ٨: ١٢).

* وعمل الوسيط رئيس الكهنة دائمٌ في الزمان؛ لأنه قدَّم ذاته بالروح القدس (عب ٩: ١٣-١٤)، فهو لا يزال كما يقول رسول الرب: "يطهر ضمائرنا من أعمال ميتة" (عب ٩: ١٤).

* هو وسيط عهد جديد أبدي (٩: ١٥)، بل قام بدم العهد الأبدي (عب ١٣: ٢٠). وهنا ليس الصلبوت فقط، بل القيامة أيضاً أعطت الخلود والأبدية لما قام به وثبَّت الحياة التي لا تموت في ذلك التقديم الواحد الذي لا يتكرر وجعلته دائماً وحيًّا[١].

---

(١) نرجو من القارئ مراجعة مقالة شفاعة الروح القدس في أعداء الله للأب صفرونيوس، منشور على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية www.coptology.com

الفصل الثالث

المكونات العقائدية لشفاعة القديسين

لن نحاول إثبات صحة شفاعة القديسين الأحياء، فهذه نقطة، لا يرفضها المتطرفون مهما كان انتقادهم العقيدي، وهي في الحقيقة إحدى المكونات العقائدية لشفاعة القديسين، وإن كانت تواجه باعتراض قوي، وهو أن هؤلاء بعد الموت أصبحوا لا يملكون الصلاة، وانقطعت علاقتهم بالأحياء، وبالتالي لا مجال بالمرة لطلب صلواتهم. اذاً الكلام يدور حول شفاعة القديسين الراقدين. فما هو أساس هذه العقيدة؟ وكيف يظهر في الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة العظام مثل: باسيليوس، وذهبي الفم، ومار افرام، وغريغوريوس النزينزي الملقب بالناطق بالإلهيات، ثم اوغسطينوس، وغيرهم.

أولاً: وحدة جسد المسيح:

الكنيسة ليست مجموعة من الأفراد. ذلك تعليم غريب عن المسيحية. وإنما الكنيسة هي جسد المسيح الواحد. وعلينا أن نرى بكل وضوح أن الرسول بولس لا يقول مطلقاً، نحن مثل الجسد، أو نشبه الجسد، بل نحن جسد المسيح الواحد (١ كورنثوس ١٢: ١٢ – أفسس ١: ٢٣ – ٣: ٦ – ٥: ٢٣ – كولوسي ١: ١٨). كيف نأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار والجدية؟ هل هي حقيقة مؤثرة في الحياة الروحية؟ وهل لها قيمة عقائدية؟ الجواب بكل تأكيد نعم.

١– نحن جسد المسيح الواحد، لأننا كنا في آدم موتى، وجاء المسيح وأحيانا فيه هو (رومية ٥: ١٢–٢١ – ١ كورنثوس ١٥: ٤٥–٤٩). فنحن محصورين بين آدم الأول، وآدم الثاني. ولا نوجد في حالة حياد، إما إننا أموات في آدم الأول، أو أحياء في المسيح يسوع.

٢- وحقيقة شركتنا في آدم الأول حقيقة نراها في أجسادنا وأرواحنا، لأننا نعلم من أين جاء الفساد والموت "في آدم يموت الجميع" (١ كورنثوس ١٥: ٢٢). وكذلك حقيقة شركتنا في آدم الثاني، هي ما نراه في أنفسنا وأجسادنا "حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا" (٢ كورنثوس ٤: ١٠)، ولذلك في المسيح سوف نوهب الحياة (١ كو ١٥: ٢٢).

٣- هذه الشركة الحقيقية، هي وحدة في الجسد والروح، ولذلك نحن الذين نولد من آدم الأول ميلاداً طبيعياً، نولد من آدم الثاني ميلاداً روحياً فائقاً للطبيعة، أي الميلاد الجديد في المعمودية. (يوحنا ١: ١٢-١٣) وهذا الميلاد هو شركة في موت المسيح وقيامته (رومية ٦: ١-٨)، وهو ما يجعلنا جميعاً أعضاء الجسد الواحد، جسد المسيح، لأن المسيح اشترك في الدم واللحم (عبر ٢: ١٤) لكي نشترك نحن في بنوته (أفسس ٤: ١٥-١٦).

من ينكر هذه الحقائق الثلاثة فقد أنكر السقوط والخلاص معاً.

ثانياً: وحدة جسد المسيح والموت:

لقد متنا جميعاً في آدم الأول "دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس" (رومية ٥: ١٢). وكانت بشارة الانجيل إلينا هو أننا نعيش في المسيح يسوع، من جديد حياة جديدة غير خاضعة للموت إطلاقاً حسب كلمات الرسول بولس الواضحة عن أن الذين قبلوا شركة الحياة في المسيح "سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح" (رومية ٥: ١٧). ليست فقط حياة، بل نملك في الحياة "كما ملكت الخطية في الموت، هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا" (رومية ٥: ٢١). هذا ما يصلنا من المعمودية لأن الرسول بولس يكمل كلامه عن ملك الحياة في أطول نص عن المعمودية في العهد الجديد وهو (رومية ٦: ١-٨). لقد متنا معه بشبه موته عندما اعتمدنا لموته وقيامته (رومية ٦: ٥-٧). ولكن "نؤمن أننا سنحيا أيضاً

معه عالمين أن المسيح بعدما أُقيم من الأموات لا يموت أيضاً. لا يسود عليه الموت .. كذلك أنتم ايضاً احسبوا أنفسكم .. أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا" (رومية ٦: ٩-١١). هكذا بكلمات لا تقبل الجدل، يحدد الرسول بولس حقيقة الرجاء المسيحي، ونحن أحياء، نملك في الحياة بالمسيح لا يسود علينا الموت، وهو ما جعل المسيح يقول، حتى عن البطاركة الذين رقدوا على رجاء مجيء المخلص، إنه حتى هؤلاء "أحياء" لأن الله الحي ليس إله أموات بل الجميع عنده أحياء (متى ٢٢: ٣٢ - مر ١٢: ٢٧ - لو ٢٠: ٣١).

١- اذاً نحن أحياء في المسيح، وفي المسيح تماماً بسبب المعمودية "كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح .. واحد في المسيح" (غلاطية ٣: ٢٧-٢٨) وبسبب سكنى الروح القدس فينا "أما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح إن كان روح الله ساكناً فيكم" (روحية ٨: ٩ - غلاطية ٣: ٢٦).

٢- وماذا عن الراقدين ..؟ هل هم في المسيح؟

والجواب الواضح أن الرسول بولس يقول "إن كنا نؤمن أن يسوع مات وقام، فكذلك الراقدون بيسوع، سيحضرهم الله أيضاً معه". هؤلاء ليسوا أموات أو مجرد راقدين "إنهم الراقدون بيسوع" وهم "الأموات في المسيح" (١ تسالونيكي ٤: ١٤ - ١٦).

وعلينا أن نلاحظ قوة التعبير، راقدون بيسوع - الأموات في المسيح. لأن هؤلاء صاروا في المسيح يسوع بالمعمودية كما أشرنا، وبالإفخارستيا "نحن الكثيرين خبز واحد، جسد واحد" (١ كورنثوس ١٠: ١٦-١٧). إذاً نحن الذين غلبنا الموت، لا نفقد عضويتنا في جسد المسيح الواحد، لا يسود علينا الموت، لأن سيادة الموت معناها إننا لا نملك في الحياة بالواحد. وأننا عندما نموت، لسنا في المسيح وفي المسيح الحياة، كل الحياة.

والرسول لا يضع فقط وحدتنا في المسيح أحياء وراقدين في الجسد الواحد، بل أيضاً أننا بناءٌ واحد حي هو هيكل الله "مبنيين على أساس الرسل والأنبياء ويسوع

المسيح نفسه حجر الزاوية، الذي فيه كل البناء مركب معاً ينمو هيكلاً مقدساً في الرب. الذي فيه أنتم أيضاً مبنيون معاً مسكناً لله في الروح" (أفسس ٢: ٢١-٢٢)، فهل يهدم الموت ذلك الهيكل؟ كيف؟ والرسل والأنبياء ويسوع المسيح نفسه، حجر الزاوية. وكيف يدب الموت في أعضاء الجسد، الذي رأسه المسيح؟ (كولوسي ١: ١٨). المسيح حياتنا (كولوسي ٣: ٤).

بناء واحد حي، جسد واحد، هو جسد المسيح، غلبة على الموت .. فكيف يمكن أن يُقال إننا بالموت ننفصل عن الكنيسة.

العهد الجديد كله، لا يصرح بشكل مباشر، أو غير مباشر بأن الراقدين، قد كفوا عن أن يكونوا أعضاء في جسد المسيح، أي الكنيسة، وإنما على العكس، يؤكد أننا سنملك في الحياة بالواحد (رومية ٥: ١٧). والفعل "يملك" هو الفعل المشتق منه كلمة "ملكوت". نحن نرث هذا الملكوت، وفيه نحن أحياء لله (رومية ٦: ٩).

الراقدون في ملكوت الله أو ملكوت السموات:

من الأخطاء الشائعة عندنا، التمييز بين ملكوت الله، وملكوت السموات. هذا الخطأ يعتمد على أساس أن ملكوت السموات هو الجزاء النهائي للقديسين، واعتماداً على هذا التمييز يعتقد البعض أن الراقدين هم في مكان ما، لا علاقة لهم بملكوت السموات، أو بملكوت الله. بينما يحلو للبعض اعتبار أن الفردوس هو غير الملكوت سواء كان ملكوت السموات أو ملكوت الله.

لكن ماذا يقول العهد الجديد؟

إن نظرة فاحصة لكل النصوص التي وردت فيها كلمة ملكوت، تؤكد أن تعبير ملكوت السموات، جاء في إنجيل القديس متى فقط. فالرسول متى هو وحده الذي يستخدم ملكوت السموات وملكوت الله، أما باقي الرسل فهم يستخدمون تعبير ملكوت الله فقط.

ومـن الواضـح الآن في الدراسـات المعاصـرة لعلمـاء العهـد الجديـد، أن الله والسموات هما واحد، والفرق لغوي فقط. ومع أن المجال لا يسمح بنقل هذه الدراسات المعاصرة إلَّا أننا نكتفي باقتباس نصوص مقارنة قالها المسيح نفسه وردت في إنجيل متى حيث يظهر تعبير ملكوت السموات. بينما وردت نفس أقوال المسيح التي ذكرها متى في إنجيلي مرقس ولوقا وتظهر فيها عبارة "ملكوت الله".

+ كرازة المسيح حسب متى: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات" (متى ٣: ٢ – متى ٤: ١٧).

+ وكـرازة المسـيح حسـب مـرقس ولوقـا: "كمـل الزمـان واقـترب ملكـوت الله" (مرقس ١: ١٤–١٥)، "أبشر بملكوت الله" (لوقا ٤: ٣٤).

+ وفي العظة على الجبل يقول الرب: "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات" (متى ٥: ٣). بينما سجل لوقا نفس الكلام: "طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله" (لوقا ٦: ٢٠).

+ وعن يوحنا المعمدان قال الرب: "الأصغر في ملكوت السموات أعظم" (متى ١١: ١١) ونفس القول في لوقا "الأصغر في ملكوت الله أعظم" (لوقا ٧: ٢٨).

+ وفي مثل الزارع، يقول المسيح إن الرسل وُهِبَ لهم أن يعرفوا "أسرار ملكوت السموات" (متى ١٣: ١١) أمَّا في مرقس ولوقا فهي "أسرار ملكوت الله" (مرقس ٤: ١٠، لوقا ٨: ١٩).

+ وطلب الرب من الرسل أن "يكرزوا بملكوت السموات" (متى ١٠: ٧)، ولأنها نفس الكرازة ونفس الرسل "ليكرزوا بملكوت الله" (لوقا ٩: ٢).

+ الملكوت يأتي أو يقترب، وهو نفسه الملكوت الواحد، ملكوت الله أو ملكوت السموات "اقترب ملكوت السموات" (متى ٣: ٢) "اقترب ملكوت السموات"

(متى ١٠: ٧)، "اقترب ملكوت الله" (مرقس ١: ١٤، لوقا ١٠: ٩) "ملكوت الله قريب" (لوقا ٢١: ٣١).

والحقيقة الفائقة التي يجب أن تستقر في أذهاننا، هي أن الملكوت هو المسيح، هو الذي جاء وأسس الملكوت عندما تجسد، وسيجيئ للدينونة ويعلن الملكوت في يوم قيامة الراقدين. وعلينا أن ندرك هذا بكل وضوح، فهتاف الأطفال يوم أحد الشعانين هو "أوصانا .. مملكة أبينا داود الآتية" (مرقس ١١: ١٠ – متى ٢١: ٩). ولكن هذه المملكة لها ملك، ولذلك يقول لوقا: "مبارك الملك الآتي" (لوقا ١٩: ٣١). "ومن ترك بيتاً أو أخوة .. لأجلي ولأجل الانجيل" (مرقس ١٠: ٢٩) أو لأجل أسمي (متى ١٩: ١٩) وعلى الفور نعرف أن المقصود هنا هو شخص المسيح، وهو الملكوت. "ليس أحد ترك بيتاً أو أخوة من أجل ملكوت الله" (لوقا ١٨: ٢٩). ونفس المعنى واضح في سفر الأعمال حيث كان فيلبس يكرز بملكوت الله وباسم الرب يسوع المسيح (أع ٨: ١٢). وبولس يكرز بملكوت الله، ومعلِّماً بأمر الرب يسوع المسيح (أع ٢٨: ٣١). هذا تؤكده حادثة التجلي على الجبل، حيث يذكر مرقس "أن قوماً لن يذوقوا الموت حتى يروا ملكوت الله قد أتى بقوة" (٩: ١). وهذا الملكوت هو تجلي ابن الإنسان (متى ١٦: ٢٨).

نحن الذين اعتمدنا ليسوع، نحن الذين نرث الملكوت، لأننا جميعاً شركاء في الضيقة الحاضرة وفي ملكوت يسوع (رؤ ١: ٩). شركاء المجد الذي أخذناه هنا بشكل عربون وسوف نأخذه بشكل كامل في إعلان الملكوت. وعلينا أن نلاحظ كيف تحل كلمة مجد محل كلمة ملكوت، لأن المعنى واحد "نجلس عن يمينك وعن يسارك في مجدك" (مر ١٠: ٣٧) "نجلس عن يمينك وعن يسارك في ملكوتك" (متى ٢٠: ٢١).

والراقدون، ليسوا بعيداً عن الملكوت، أو في حالة انتظار، أو ما أشبه ذلك، كل هذه مفاهيم غير معروفة في تقليد الكنيسة الجامعة. الراقدون، هم الذين رقدوا في المسيح (١ كورنثوس ١٥: ١٨)، هؤلاء لم يهلكوا لأنهم ماتوا في المسيح، وإنما هم في المسيح، أعضاء ثابتة في الجسد، وسوف ينالون معنا عندما نقوم، الميراث الأبدي.

نحن جميعاً نذوق عربون الميراث (أفسس ١: ١٤)، ولكن في يوم القيامة سوف ننال جميعاً الميراث السماوي بالجسد والروح؛ لأننا سنقوم في مجد، وعدم اشتراك الجسد في هذا هو الذي يجعل الجزاء الكامل مؤجلاً إلى يوم الدينونة، لأن اللحم والدم لا يقدران أن يرثا الملكوت – ملكوت الله، فالفاسد لا يرث عدم الفساد (١ كورنثوس ١٥: ٥٠) ولذلك نحن جميعاً نذوق الملكوت منذ الآن؛ لأن المسيح بموته نقلنا إلى ملكوته (كولوسي ١: ١٣)، وعندما نرقد، إنما نتقدم أكثر في معرفة الملكوت، لأننا بضيقات الحياة الحاضرة وهي كثيرة "ندخل ملكوت الله" (أع ١٤: ٢٢). ونحن الذين حلَّ فينا الروح القدس، وأخذناه عربوناً من الله الآب، نختبر حقيقة الملكوت جزئياً "ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً، بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس" (رومية ١٤: ١٧). فإذا كان الملكوت هو بر وسلام وفرح في الروح القدس، ألا نختبر نحن هذه الأمور ولو بشكل جزئي، هنا. لأن "ثمر الروح فهو محبة، فرح، سلام .." (غلاطية ٥: ٢٢).

الله = السماء = الملكوت، حقيقة واحدة تجعل الراقدين في الله، في المسيح، في الملكوت. وبشكل واضح في وحدة مع باقي أعضاء الجسد الواحد.

الله وحياة عدم الموت:

علاقة الموت بالخطية، لا تحتاج إلى شرح، فهي حقيقة مؤكدة، "اهتمام الجسد، هو موت، ولكن اهتمام الروح هو حياة وسلام" (رومية ٨: ٦). واهتمام الجسد هو الحياة بعيداً عن الله، ذلك الاهتمام، الذي يقود في النهاية إلى الانفصال عن الله (راجع رومية ٨: ١٣ – إن عشتم حسب الجسد فستموتون). وحسب تعبير الرسول الصريح "شوكة الموت فهي الخطية" (١ كورنثوس ١٥: ٥٦) ولكن قوة الخطية، ونتائجها لا تسود على حياة المسيحي، "الذي تقدمون ذواتكم له عبيداً للطاعة، أنتم عبيد للذي تطيعونه، إما للخطية للموت، أو للطاعة للبر" (رومية ٦: ١٦)، لأن "أجرة الخطية هي موت" (رومية ٦: ١٣)، ولذلك كانت "أهواء الجسد تعمل في أعضائنا لكي تثمر للموت" (رومية ٧: ٥)، (راجع يعقوب ١: ١٥).

لقد نقلنا المسيح بموته وقيامته، إلى اهتمام الروح، إلى الحياة والسلام مع الآب، بل لقد فَقَدَ الموتُ شوكته، الآن، بسبب قيامة المسيح (١ كورنثوس ١٥: ٥٥). لقد مات المؤمن مع المسيح (رومية ٦ :٨)، وهذا حرره نهائياً من إبليس الذي له سلطان الموت (عبرانيين ٢: ١٩). مات المسيح فماتت فيه الطبيعة الانسانية، التي يصفها الرسول بولس بالكل، مات الكل (٢ كورنثوس ٥: ١٤)، ولكن فيه قام الكل، وصار جديداً بالقيامة (٢ كورنثوس ٥: ١٧). المسيح الإله المتجسد، جعلنا، أحياء لله. هو مركز هذه الحياة، أو رأس ذلك الجسد الحي. ليجمع كل شيء، في المسيح، ما في السموات وما على الأرض، في ذاك الذي فيه نلنا نصيباً .. وأخضع كل شيء تحت قدميه، وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة، التي هي جسده (أفسس ١: ١٠: ٢٣).

نحن لسنا أحياء بذواتنا، وحياتنا منفصلة، كلٌّ له حياته الذاتية. هذه صورة الأفراد المتفرقين، وليست صورة المسيح. فالمسيح هو جسد واحد، مثل الجسد المكوَّن من أعضاء مختلفة (١ كورنثوس ١٢: ١٢). وهذا ما يجعل الرسول يقول بوضوح: "أنتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً" (١ كورنثوس ١٢: ٢٧). ولذلك صورة الأحياء في المسيح، المتفرقين، المبعثرين، هي صورة تخالف الواقع الحقيقي الذي يحياه هؤلاء كمؤمنين، لأنهم يعيشون أعضاء الجسد الواحد، أي جسد المسيح ويشتركون في حياة واحدة، هي حياة المسيح.

فالحقيقة الواضحة، أن الإنسان ليس بالطبيعة خالد، كما أنه لم يخلق خالداً، بل نال الخلود منحةً من الله. هذه الحقيقة المسيحية تختلف عن تعليم الفلسفة اليونانية، التي ترى الإنسان خالداً بالطبيعة. ولذلك يقرر الرسول بولس، إن الله وحده هو الذي له عدم الموت (١ تيموثاوس ٦: ١٦)، وبشكل قاطع "هبة الله هي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا" (رومية ٦: ٢٣).

نحن لا نقوم من الموت لأننا نملك هذه القدرة، ولكن لأن المسيح هو القيامة وهو الحياة (يوحنا ١٠: ٢٥). ولا يوجد مطلقاً تعبير في كل العهد الجديد يؤكد أننا

نقوم، وإنما نُقام في المسيح يسوع. هو الذي يهب لنا القيامة، لأنها هبة الرأس للأعضاء. وهذه الحقيقة ساطعة لأن المسيح الحياة والخلود (٢ تيموثاوس ١: ١٠) هو أصل الحياة، أو رأس الحياة αρχηγος (أع ٣: ١٥).

ولأن المسيح هو الحياة، نحن نخلص بحياته (رومية ٥: ١٠) والخلاص بحياة المسيح هو أحد الموضوعات الأساسية في صلوات الكنيسة، وإحدى دعامات القداس الإلهي (الديداكي ٩: ٣ – برنابا ١: ٤ – اغناطيوس الانطاكي مغنيسا ٩: ٢ – تراله ٩: ٢، راجع أوشية الانجيل في الطقس القبطي): "لأنك أنت هو خلاصنا وحياتنا، وقيامتنا كلنا".

هذه الحياة مستترة فيه، غير ظاهرة بشكل مرئي، لكنها ستظهر في يوم القيامة عندما يعلن الآب مجد ابنه الوحيد (كولوسي ٣: ٣) من أجل ذلك، قيل بحقٍ إنه هو الإله الحق والحياة الأبدية (١ يوحنا ٥: ٢٠).

الحياة الأبدية، لا تبدأ في يوم القيامة، ولكنها تبدأ هنا، والرجاء المسيحي، يعتقد أنها سوف تكمل في الأبدية: "مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي حسب رحمته ولدنا ثانية لرجاء حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات" (١ بط ١: ٣) هذه الحياة تصل إلى كمالها، أي تتوج بإكليل البر أو اكليل الحياة (رؤيا ٢: ١٠ – ٢ تيمو ٤: ٧)، وهو ما يجعل بولس يقول: "امسك بالحياة الأبدية التي إليها دعيت" (١ تيموثاوس ٦: ١٢ – ٦: ١٩).

الفرح الذي نتوقعه والذي نتذوقه جزئياً سيكون كاملاً في الدهر الآتي (متى ٢٥: ٢١). ولكن الفرح مثل المجد نأخذه أيضاً جزئياً، كعربون. ولذلك يعتبر القديس بطرس نفسه ليس شاهداً فقط لآلام المسيح بل مع المؤمنين شريكٌ للمجد العتيد أن يُعلن" (١ بط ٥: ٢)، عندما يظهر رئيس الرعاة لكي يتوج الكل بإكليل المجد الذي لا يبلى (١ بط ٥: ٤، ١٠).

المشكلة الرئيسية، هي أن الذين يغفلون هذه الحياة، هم الذين يعتقدون أن كل شيء مؤجل إلى القيامة، أمَّا الواقع، فهو أن كل شيء يبدأ هنا ويكمل بالقيامة. حياتنا تحررت من الموت، بل حتى الموت نفسه هو فرصة لكي تظهر حياة يسوع في جسدنا، هنا وفي شكلها الكامل بالقيامة (٢ كورنثوس ٤: ١٠) وهذا يجعل الرسول يقول: "كمائتين وها نحن نحيا" (٢ كورنثوس ٦: ٩).

وما هو نوع هذه الحياة "العالم أم الحياة، أم الموت أم الاشياء الحاضرة، أم المستقبلة، كل شيء لكم، وأما أنتم فللمسيح والمسيح لله" (١ كورنثوس ٣: ٢٢-٢٣). ما يؤكده الإيمان بشكل واضح، أنه لا انفصال عن الله بالموت، لا انفصال عن الله، لأن المسيح أحبنا وهذه المحبة سكبت حياة المسيح فينا، حتى أصبح من المستحيل على الموت أو الحياة أو الملائكة ولا ما في هذه الدنيا ولا ما يمكن أن يكون جديداً في الحياة الآتية أن يفصلنا عن محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا (رومية ٨: ٣٨-٣٩).

هذه الحقيقة الفائقة تصاغ بشكل واضح في إنجيل القديس يوحنا، فالمسيح هو الحياة (يوحنا ١: ١٤)، بل يملك هذه الحياة كصفة شخصية، وهي طريقة عميقة في التعبير عن إلوهية الابن. وهذه الحياة يمكن أن يهبها الابن لمن يشاء "كما أن الآب يقيم الأموات ويحيي كذلك الابن أيضاً يحيي من يشاء" (يو ٥: ٢١) والمسيح ينقل هذه الحياة، لأنه واهب الحياة، ولكن نقل الحياة للإنسان، أي الحياة الأبدية "تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون" (يوحنا ٥: ٢٥). وفي الاصحاح السادس كله، هبة الحياة هي الاتحاد بالمسيح، وهي تناول الحياة كطعام روحي، كل من يأكله لا يموت "أنا هو خبز الحياة .. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد. والخبز الذي أنا أعطي هو جسدي" (يوحنا ٦: ٤٨ - ٥١). فالمسيح هو نور العالم لأنه مصدر حياة الكائنات، حتى قبل مجيئه في الجسد (يوحنا ١: ٤). هذه الحقيقة خلف كل التصريحات عن الحياة. هو نفسه الحياة (١١: ٢٥)، وخبز الحياة (٦: ٣٦، ٤٨)، ونور الحياة (٨: ١٢)، وكلماته هي روح وحياة (٦: ٦٣).

والحقيقة الواضحة هي أن الكتاب المقدس يستخدم كلمتين كل منهما يمكن ترجمتها إلى حياة. ولكن واحدة فقط تعني الحياة الآتية من الله. ومن هنا حدث الخلط بين معنى كلمة حياة آتية من الله، والحياة الانسانية العادية التي وإن كانت هبة من الله إلَّا أنها يمكن أن تعيش لفترة بدون الله وتموت، أي تفقد الشركة.

الحياة بمعناها العادي الانساني البسيط هي *Bios* ولكن الحياة الآتية من الله هي *Zoe* ولذلك تأتي *Bios* لتعني الحياة اليومية العادية "لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة" (١ تيموثاوس ١: ٢) وهي أيضاً التي وصفت كحياة يومية "ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة" (٢ تيموثاوس ٢: ٤ – راجع ١ بط ٤: ٣). ولذلك فإن المال كأحد عناصر الحياة ما يمكن أن يصبح في حالة الأرملة ألقت كل حياتها، وحسناً فعلت الترجمة العربية، ألقت كل معيشتها (مرقس ١٢: ٤٤ – لوقا ٢١: ٤). ولنفس السبب قيل عن الابن الضال إنه أنفق معيشته مع الزواني (لوقا ١٥: ١٢، ٣٠). راجع أيضاً قول يوحنا الرسول "وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجاً" (١ يوحنا ٣: ١٧) ولذلك عن *Bios* يُقال "تعظُّم الحياة أو تعظُّم المعيشة" (١ يوحنا ٢: ١٦) ولعل أعظم ترجمة لهذا التعبير هو (لوقا ٨: ١٤) الاهتمامات والغنى ولذات الحياة.

في هذا الإطار لا يمكن أن نتكلم عن الحياة الإلهية *Zoe* وإنما هي الحياة الآتية (١ تيموثاوس ٤: ٨) وكلما وردت كلمة "حياة" *Zoe* فهي دائماً الحياة الأبدية متى ١٩: ٦ – مرقس ١٠: ٧ – لوقا ١٨: ١٨ – متى ٢٥: ٤٦. وتوصف أيضاً بحياة عدم الموت *Zeo aphtharsia* (والخلود ٢ تيموثاوس ١: ١) هذه الحياة هي هبة الله (متى ٢٢: ٣١ – مرقس ١٢: ٢٦ – لوقا ٢٠: ٣٦). ومع أن العهد الجديد أحياناً يستخدم كلمة حياة فقط بدون إضافة أبدية، أو عدم الموت، مثل قول الرب نفسه "خير لك أن تدخل الحياة أقطع" (مرقس ٩: ٤٣)، إلَّا أن الكلام واضح جداً ولا يحتاج إلى جهد لإدراك أن الحياة الأبدية هي المقصودة.

هذه الحياة لها مصدر رئيسي ووحيد، وهو يسوع المسيح "رئيس الحياة" الذي إن عشنا أو متنا فللرب نعيش وللرب نموت، لأننا للرب الذي مات وقام لكي يسود. أي له سلطان الحياة على الأحياء والأموات (رومية ١٤: ٩) فإن كان المسيح له سلطان الحياة ويسود على الأحياء والأموات، فكيف يمكن استبعاد الراقدين من شركة جسده أي الكنيسة وهو ما يدعو الرسول لأن يقول صريحاً: "سنحيا مع المسيح بقوة الله" (٢ كورنثوس ١٣: ٢٤) أي بقوة اللاهوت، وهو الذي يميز آدم الجديد، يسوع المسيح عن آدم الأول الذي مات وخضع للموت (رومية ٥: ١٢ – ١ كورنثوس ١٥: ٢٠–٢١).

حياة المسيحي ليست في الواقع حياته هو، وإنما هي حياة المسيح، فليست الـ *Zoe* هي الحياة النابعة من الجسد، وإنما هي الحياة التي يسكبها المسيح "المسيح يحيا فيَّ" (غلاطية ٢: ٢٠) "لي الحياة هي المسيح" (فيلبي ١: ٢١) وهي عند الموت بشكل خاص تظهر هذه الحياة فينا (٢ كورنثوس ٤: ١٠) هذه المواعيد العظمى التي وهبت لنا في المسيح تفقد معناها وقوتها إذا ادعى إنسانٌ ما بأن الراقدين في المسيح يموتون وينتهون.

حياة بالروح القدس:

إن الكلام الواضح الصريح عن الابن الكلمة الأزلي، هو أنه أزلي مع الله منذ البدء، وأنه هو بذاته جاء لكي يسكن في الإنسانية (يوحنا ١: ٤ – ١ يوحنا ١: ١–٣). وبدون أن نتكلم عن الابن الذي جاء لكي يسكب حياته فينا (١ يوحنا ٥: ١٢ – يوحنا ٦: ٤٠، ٤٧) فإن الذين يؤمنون بالمسيح قد انتقلوا من الموت إلى الحياة. بل لا يأتي إلى الدينونة (يوحنا ٥: ٢٤ – ١ يوحنا ٣: ١٤)، ولا يموت إلى الأبد (يوحنا ١١: ٢٥–٢٦). هذه الحياة ينقلها إلينا روح الحياة، عندما ننضم إلى الجسد الواحد أي الكنيسة "لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد .. وجميعنا سقينا روحاً واحداً". (١ كورنثوس ١٢: ١٣). فالانضمام إلى الجسد الواحد لا يتم بإرادة الإنسان وحدها فهي رغم أهميتها، إلَّا أنها لا تملك أن تنال الحياة الالهية التي هي فوق قدرة الإنسان، ولا يمكن للإنسان أن ينالها، بل تعطى كهبة إلهية من الله. هذا هو دور الروح

القدس الواحد، الذي يسكن فينا ويعطي لنا حياة روحية واحدة، تجعل الذين يعتمدون يتحولون إلى هيكل الله (رومية ٨: ١٦ – ١ كورنثوس ٦: ١٩–٢٠)، والهيكل رغم أنه تعبير مضاد تماماً لليهودية وطقوسها، إلَّا أن الحقيقة الواضحة هي أن الهيكل هو ناسوت المسيح أو جسده (يوحنا ٢: ٢١). فالمسيح هو الذي نال الروح القدس كآدم الثاني لكي يسكن فيه هو ومنه يوهَب لنا. من الملاحظ أحياناً أن الروح يحل محل المسيح أو العكس .. روح الله ساكناً فيكم (رومية ٨: ٩). ثم هو روح المسيح (٨: ٩) ولكن النتيجة النهائية هي أن "المسيح فيكم" (رومية ٨: ١٠). إن الذين دخلوا أو انضموا إلى هذا الهيكل لا يمكن أن يسود عليهم الموت، فالحياة الجديدة التي يسكبها الروح القدس في الإنسان لا تجعله عبداً للموت، وإنما ابناً ينادي الله إلى الأبد "أبَّا أيها الآب" (غلاطية ٤: ٤).

الفصل الرابع

الشفاعة، أو الدالة

هي الجرأة والشجاعة في الصلاة

(دراسة لبعض القطع التي تقال عن والدة الإله)

لا أدري إلامَ يستند من ينكر شفاعة القديسين في عدم اقتناعه بأن هذه الشفاعة تتأسس على أن الكنيسة هي جسد المسيح الواحد، وأن الرأس، ربنا يسوع المسيح مع الأعضاء هم معاً وحدة واحدة مكونة من الحياة الجديدة التي لا تفوُّق فيها لعضوٍ على آخر، من جهة الاتحاد بالرأس، ولا مكانةَ لعضوٍ أعظم من مكانة عضو آخر. ففي هذا يتساوى الآباء والشهداء ووالدة الإله التي تدخل في تذكار الراقدين في "المجمع" في القداس الإلهي.

لا يوجد وسيط بين المسيح ربنا وبين المؤمنين، والتعليم المعاصر عن شفاعة القديسين يحتاج إلى تنقية؛ لأن التسليم الآبائي لا يعرف بالمرة ما نراه في التعليم المعاصر، وهو دون حصر كل الأخطاء:

١– إن الله قاسي القلب ويحتاج إلى التوسل الحار حتى يرحم، والصحيح هو أن التوسل الحار من جانبنا لا يغيِّر إرادة الله، بل يثبِّت قلب مَن يطلب لكي ينال أولاً: معرفة إرادة الله. وثانياً: الثبات في الطلبة، أي ثبات رؤية القلب للهدف الواضح الذي لا يجب أن يتغيَّر.

٢– لا يفقد أي خاطئ محبة الله للخطاة؛ لأن لقب الرب يسوع هو "محب البشر"، وهو يعني كل البشر. والصلاة والتوسل لا تخلق المحبة في الله؛ لأن محبة الله العظمى للبشر سابقة على خلق العالم نفسه (أفسس ١: ١–٤).

٣– لا يوجد شخصٌ ما في السماء وعلى الأرض، أقرب إلى المسيح من أي مؤمن، مهما كانت حياة هذا المؤمن؛ لأن كل المؤمنين هم أغصان الكرمة الواحدة (يوحنا ص ١٥). إذن، لماذا نطلب شفاعة القديسين، ولماذا نقول: "ليس لنا جرأة سوى شفاعتك"؟ (الكلمة اليونانية – القبطية، كما سبق وشرحناها تعني الجرأة والشجاعة).

الجرأة هي تلك التي جاء بها تجسد الله الكلمة من الأم البتول. هي شفاعة دون وساطة، هي سفارة من "سفير" *ambassador* ليس لأن علاقتنا صعبة أو مستحيلة، وليس لأننا خطاة مرذولين، وليس لأننا مطروحين في الحكم، وإنما العكس، هي شهادة المحبة الإلهية على أن المسيح بيننا؛ لأنه جلس على ركبتي البتول ورضع لبن أمه. هي شهادة دامغة لكل إنسان يرى الأم والدة الإله، ويدرك أن العلاقة العضوية التي تجعله عضواً لأنه بشر، هي التي تعطي له الجرأة أو الدالة، وشهادة الدالة هي والدة الإله التي حبلت بالله الكلمة.

والذي يعترض على ذلك يحتاج إلى العودة إلى الإيمان بوحدة الكنيسة التي لا فرح لها إلَّا بعودة الملء، أي الـ ١٠٠ خروف؛ لأن بقاء الـ ٩٩ الذين لا يحتاجون إلى توبة معناه الفرح الناقص. هكذا ليكن لك جرأة أو دالة مصدرها التجسد، ومصدرها وجود أم النور على عرش اللاهوت، وهو ما سوف نناله نحن جميعاً، وهو ما يعطي لنا الجرأة أو الدالة.

أقول للمعترض إن أفكاراً كثيرة خاطئة دخلت حياتنا الأرثوذكسية، وجعلتنا نتصور أن مكانة القديسين أعظم، وكأن في المحبة الإلهية درجات أولى وثانية وثالثة .. الخ. هذا شيءٌ آخر وليس ملكوت ربنا يسوع المسيح. إن كلمات اللحن: "ليس لنا دالة عند ربنا يسوع المسيح سوى طلباتك وشفاعتك"، أي تلك العلاقة الجديدة التي جاء بها

تجسد ابن الله الكلمة، والتي جعلت له أماً، وجعلتنا بالتالي إخوة وأخوات، ولذلك نختم هذه الكلمات ونقول: "لكي نسبحك مع الشاروبيم .."؛ لأننا دخلنا الخدمة السماوية.

غفر الله لكل من جعل من تجسد الرب عقيدة تهدم الكنيسة، كأن للمسيح أجساداً ثلاثة: من القديسة مريم – جسده في الإفخارستيا – الكنيسة .. فقطع بذلك الاتحاد المستيكي، وخلق تعليماً فاسداً أفسد التعليم بشفاعة القديسين، وهدم الكنيسة وعزل الإفخارستيا عن اتحادنا بالقديسين والشهداء ووالدة الإله، وهم أعضاء معنا في ذات الجسد الواحد الذي نتناوله، أي جسد المسيح الواحد.

افرحي يا مريم ..... ليس لنا دالة ...

السؤال الخطأ يقود إلى إجابة خاطئة، وخطأين لا يصنعان معاً صواباً واحداً. الخطأ الأول هو تصور إفراد العذراء بوساطة خاصة. والإجابة الخطأ هي الدفاع عن مكانة وكرامة والدة الإله إلى الحد الذي قد يقود إلى إنكار أن الكنيسة جسدٌ واحد له رأسٌ واحد هو الرب يسوع المسيح.

يقول اللحن: "**افرحي يا مريم الأم والعبدة**". والعبدة جاءت بكل يقين من قلم اللاهوتي البارع الذي وُصِفَ بأنه "ختم الآباء"، القديس كيرلس الكبير؛ لأن تأكيد أن مريم "عبدة" هو اعترافٌ بأنها بشرٌ مثلنا، وأنها لم تكن مصدر اللاهوت؛ لأن لقب "والدة الإله"، هو لقبٌ خاصٌ بالتجسد والمتجسد. ولولا تجسد ابن الله المولود من مريم، لَمَا وُصِفَت مريم بأنها والدة الإله. وبعد ذلك تقول كلمات اللحن: "**لأن الذي في حجرك تسبحه الملائكة .. الخ**". فرحُ مريم هو فرح الخليقة بتجسد ابن الله، وبدخول البكر إلى العالم (عب ١: ٦). وفرحُ مريم هو فرح الكنيسة كلها، فهي تجلس معنا حول المائدة، أي مذبح الكنيسة في الخدمة الإلهية، هي ومعها كل الطغمات السماوية والرسل والأنبياء، وكل ملء الكنيسة. هذا التعليم تراه في صلوات الإفخارستيا، وفي كل قداسات الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية والمارونية. إن كان قد غاب عن الوعي القبطي

المعاصر، فالسبب هو الجهل والحرب الشعواء التي تثور ضد تراث الكنيسة القبطية نفسها. الإفخارستيا ليست فقط "عشاء الرب"، وإنما هو "عشاء الملكوت" الذي يجمع كل الخليقة: الملائكة والقوات السماوية، المؤمنين في العهدين. ونحن قد لا ندرك أن قراءة "السنكسار" الذي يجمع أخبار نياحة ملوك وأنبياء العهد القديم، هو تأكيد على أن الكل مع الرسل وقديسي العهد الجديد والمؤمنين عبر كل العصور، هؤلاء قد اجتمعوا بدعوةٍ إلهيةٍ، من الرب يسوع المسيح نفسه الذي جاء لكي يجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد (يوحنا ١١: ٥٢)[١] الذين فرَّقهم الزمان والشريعة، ولكن حيث جاءت المصالحة بين كل الخليقة، جمع الرب يسوع الكلَّ تحت سلطانه الإلهي الواحد، أي تحت رأسٍ واحد (أفسس ١: ١-٣). وشركة القوات السماوية في التسبيح هي الإفخارستيا، أي الشكر "الذبيحة العقلية" (رو ١٢: ١) التي وضع المسيح يسوع ربنا نفسه أساسها بذبح إرادي (عب ١٠: ١٠ – يو ١٠: ١٨)، استُعلِن بالصليب وبالقيامة التي غرست الصَّلبَ في كل قلب، وكل جسد، وكل إرادة، ونقلت قوة حياة الرب التي لا تزول، عمل ذبيحته من العلية في أورشليم ومن الجلجثة والقبر، إلى قوة الإرادة الإلهية التي هي أساس التدبير.

أيقونة الكنيسة حسب كلمات اللحن:

عندما ننشد نحن، فإننا نعلن فرح مريم العبدة، التي -بالأمومة- صارت والدة الإله. نحن لم ندرس تجسد الرب بذات الكثافة التي نراها عند الآباء، ولكن علينا أن نلاحظ أنه في الليتورجيا، صارت مريم أيقونة الكنيسة التي تلد المؤمنين؛ لأنها ولدت بدون زرع بشر، المولود الذي فتح باب الولادة الجديدة للبشر، أي ربنا يسوع المسيح.

إن كل اعتراض على أي تعليم عقيدي ثابت، أجمع عليه الآباء، وحفظته الليتورجية، يكشف عن انتماء المعترض والخلفية التي يتكلم منها والتي تملي عليه ما يقوله.

---

(١) أبناء الله هو أحد أسماء الملائكة في العهد القديم (سفر أيوب ١: ٦)، وهو ذات الاسم الذي استخدم في انجيل يوحنا (١: ١٣-١٤)

كان الأب متى المسكين قد كتب عبارةً ذات دلالة لاهوتية بالغة الأهمية: "بيت لحم هي مسقط رأس البشرية المفتداة".

ورأس البشرية المفتداة هو المسيح؛ لأنه هو بداية كل شيء جديد، فهو "آدم الأخير" (١كو ١٥: ٤٥). والبشرية الجديدة المفتداة لم تولد من القديسة مريم –حسبما تصور الأنبا شنودة الثالث– فهو صاحب الاعتراض السخيف الذي لم يقل به أحد من قبل على تلك العبارة، والذي كشف لنا عن انتمائه والخلفية التي ينطلق منها، حيث قال: إننا بذلك نكون إخوة الرب بالولادة الجسدية من القديسة مريم. اعتراض الأنبا شنودة الثالث هو مثل اعتراضات غيره ممن ينتمون إلى مدرسة العصر الوسيط الأوربي، مع فارق بسيط، وهو حرص الأنبا شنودة على ما يؤكد زعامته وسلطانه، ولذلك فهو لا يهاجم علانيةً عقيدة وطقوس الكنيسة، بل يضع نقده للتعليم اللاهوتي في شكل أسئلة لا يجيب عليها؛ لأنه ربما لا يعرف الإجابة، وربما لأن الإجابة تكشف الكثير عن الجوانب المستترة التي يحرص على إخفائها، لكن مَن يعرف الإيمان يدرك أن الأنبا شنودة لا يؤمن بأن الكنيسة جسد المسيح. والدليل على ما نقول هو التقسيم الذي قدَّمه في شكل أسئلة، وهي اعتراضات تؤكد عدم الوضوح وعدم الايمان في نفس الوقت، فهو صاحب نظرية الأجساد الثلاثة:

- جسد المسيح بمعنى .. المولود من العذراء
- جسد المسيح بمعنى .. الإفخارستيا
- جسد المسيح بمعنى .. الكنيسة.

وهكذا صار اسم "الجسد" هو سكين الفصل بين بيت لحم، والعلية في أورشليم، والكنيسة جسد المسيح الواحد، وكأنه لا يعرف العلاقة بين ما يظن هو أنه ثلاثة أجساد!!!

جسد المسيح المولود في بيت لحم من العذراء كوَّنه الروح القدس. ذات الجسد يسلِّمه لنا الروح القدس في الإفخارستيا، ولذلك نحن لسنا أمام "جسدين"، بل جسد واحد.

أمَّا الكنيسة فهي التي جمعها الابن في أقنومه الإلهي المتجسد؛ لأن الرأس كُوِّن لكي تتكون منه وفيه كل الأعضاء (كولوسي ٢: ١٦)، والذي كوَّن الرأس هو الروح القدس ومسرة الله الآب والإرادة الواحدة للثالوث الآب والابن والروح القدس.

لكنه قسَّم الجسد حسب الاسماء: من العذراء جسد – في الإفخارستيا – الكنيسة، ولم يوحِّد حتى بينهم بالروح القدس. ولكن الرسول يقول: "لأننا اعتمدنا بالروح القدس إلى جسدٍ واحد .. أنتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً (١كو ١٢: ١١-١٢، ٢٤)، ولم يحاول حتى أن يعود إلى صلوات الليتورجية التي تقول: "اجعلنا .. جسداً واحداً وروحاً واحداً"، وهي لا تقف عند هذه الكلمات، بل تضيف: "لكي نجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء"؛ لأن المسيح يسوع ربنا قد جمعنا معاً. وهذه هي أيقونة الكنيسة:

- فالكنيسة تأخذ بدايتها في تجسد ابن الله واتحاده بالناسوت، أي بنا.
- وهي تجمع في المسيح الكل، ولا يزال الرب يجمع ويضم إلى أعضاء جسده الكنيسة كل الذين يؤمنون به.
- وهي تولد روحياً، كمثال ميلاده من العذراء، ولكن ليس من العذراء؛ ولذلك تسمى القديسة مريم أم الكنيسة؛ لأنها ولدت الرأس الذي تولد منه كل الأعضاء.

وقد شرح آباء الكنيسة هذه الحقيقة السماوية، ونقلتها التسبحة السنوية في القطع الخاصة باسم "الثيئوطوكيات"، ولذلك جاءت التشبيهات الكثير التي تعبِّر عن هذه الحقيقة، وعلى سبيل المثال لا الحصر: "مدينة أورشليم"؛ لأنها الأم التي تجمع الكل حولها، فقد امتد عمل التجسد والمتجسد لكي يجمع البكر كل "أولاد الله المتفرقين" في الوليمة السماوية، ولكن غاب من الوعي المعاصر، الحقيقة القديمة الأرثوذكسية، أن "الذبيحة" هي "ذبيحة"؛ لأنها –كما كانت في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد– هي أهم ما يقدَّم في الوليمة، ولا وليمة بدون ذبيحة، ولا ذبيحة بدون وليمة. ولذلك،

عندما غابت المعاني القديمة، وانتقل الوعي المعاصر إلى التركيز على وساطة المسيح ورئاسة الرب، وهو موضوع لا يمكن طرحه للمناقشة ولا حتى المساومة عليه؛ لأن الوسيط واحد والرب واحد، هو الذي صنع الخلاص بقوته الإلهية، وهو ما لا يمكن اللف والدوران حوله لخلق تعليم آخر ينال من عمل الرب يسوع، أو يضعفه. لكن وساطة الرب الواحدة والوحيدة لا يجب أن تُستخدَم ضد وحدة جسده الكنيسة؛ لأنه يجمع الكل حوله تحت رأسه الواحد ما في السموات وما على الأرض. وما وحدة الكنيسة جسده إلَّا استعلان وساطته، فهي القوة الإلهية الوحيدة القادرة على أن تعطي حياةً لكل أعضاء الجسد.

ولم يكن اعتراضنا على رئاسة البابا البطريرك للكنيسة، هو اعتراضٌ على شخصٍ معين، بل تأكيد على الاعتراف بالإيمان السليم والقويم: جسدٌ واحد هو الكنيسة، ورأسٌ واحد هو يسوع، وكاهنٌ واحد هو الرب، يوزِّع خدمته على المدعوين لخدمة الكهنوت.

وعندما ذكر الأب متى المسكين في كتاب العنصرة، وهو باكورة ما نشر، إن الكاهن في الكنيسة هو خادمٌ للسر فقط، حاول الذين تتلمذوا على العصر الوسيط إثارة القلاقل حول الكتاب، ونوقش الموضوع في قسم اللاهوت في معهد الدراسات القبطية الذي كان يرأسه في ذلك الزمان أستاذنا الأنبا غريغوريوس، ولم يكن النقاش عن صحة ما كتبه الأب متى المسكين، بل في الكهنوت نفسه، وحصر أستاذنا الأنبا غريغوريوس الموضوع في النقاط التالية:

١– إن عمل المسيح كمخلص، خاصٌ به وحده لا يشترك فيه إنسان أو ملاك. وكانت عبارة القداس الغريغوري: "لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا نبياً ائتمنتهم على خلاصنا، بل انت وحدك بغير استحالة تجسدت" هي السند في ذلك.

٢– إن السرائر الكنسية تحتاج إلى خادم يخدمها، ولكن كل السرائر نابعة من المسيح نفسه، وتعطى بالروح القدس. والذين يُقامون لخدمة السرائر لا سلطان لهم عليها، بل السرائر لها سلطان التدبير الذي حددته العقيدة والقوانين الكنسية وآداب الممارسة، أي سلطان الواهب واضع التدبير وواهبه، أي الرب يسوع المسيح الذي ليس لأحدٍ

سلطان على جسده. وهكذا ضرب وعي العصر الوسيط، ولكن في نطاق ضيق وهو دائرة الباحثين.

ولأبواب الجحيم أغلقي لئلا يبتلعوا نفسي يا عروس بلا عيب للختن (العريس) الحقيقي:

إذا تصوَّرنا أن للعذراء قوة خاصة مستقلة ذاتية تعمل باستقلال تام أو شبه تام عن الرب، فإننا نرتكب -بهذا التصوُّر- ليس حماقةً فقط، بل تجديفاً. لا توجد شفاعة أو طلبة تنال قوةً من الشفيع، فليس لقداسة القديسين قوة ذاتية تحرِّك الإرادة الإلهية. ومن يعلِّم بأن للقديسين قداسة ذاتية تحرِّك الإرادة الإلهية، أو تجعل الله يسمع الصلاة وينقذ الكنيسة، فقد نسى تدبير الخلاص برمته. ولكن -كما ذكرنا في السطور السابقة- إن الكنيسة هي جسد المسيح الواحد، وإن كل عضو فيها هو متَّحدٌ بالرأس، ومتَّحد بكل الأعضاء أيضاً. هذا يُلزمنا أن نرى أن الخلاص والشفاء والتجديد، بل وغفران الخطايا، وإن كان يتم بقبول الفرد الواحد بإيمانه وتوبته واعترافه، إلَّا أن الانضمام إلى جسد الرب الواحد الكنيسة هو الذي يجعل الخلاص والشفاء والتجديد وغفران الخطايا هبة الله لكل الكنيسة، هو خلاص الفرد الذي تسري نتائجه في كل الجسد، وإذا أخذنا مثلاً معاصراً وهو الراهب مينا المتوحد، فقد تقوى ونال هبة الصلاة الدائمة، وصار القمص مينا المتوحد البراموسي، ثم لمست حياته مئات من الناس، فهو لا زال المثال الحي للصلاة والأبوة والمحبة، ولكن لم يحصر الله خلاصه فيه كفرد، بل شمل الكثيرين الذين دخلوا الرهبنة، ونالوا الشفاء بالتعليم أو بالمعجزات. هنا يجب أن نحذِّر القارئ من الوقوع في بئر العصر الوسيط، وهو أن يتصور أن القمص مينا المتوحد أو البابا كيرلس السادس، كانت له قوة ذاتية قادرة على أن تؤثر في إرادة الله، ولكن الحقيقة الآبائية والأرثوذكسية، هي أن الله هو العامل فيه كما يقول الرسول بولس أيضاً (في ٢: ١٣).

هذا يقودنا إلى ما سبق وقلناه عن "أيقونة الكنيسة" وعن الوليمة التي تجمع الكل. عندما بدأت في كتابة تاريخ الممارسات القبطية القديمة من البرديات والنقوش

وكتابات الآباء وصلوات الكنيسة وتوقفت عند ما يخص الموت والدفن، فقد بدا واضحاً من الصلوات الجنائزية الخاصة بدفن الموتى والتي لا زال أغلبها يتلى في الكنيسة اليوم:

أولاً: اجتماع الكنيسة وتقديم ذبيحة الإفخارستيا وتناول الكل من جسد الرب ودمه في حضور الجسد الميت. ولدينا أقدم وصف لجناز القديس الأنبا باخوميوس أب الشركة. وقد ضعفت هذه الممارسة في العصر المملوكي والعثماني حتى غابت من الوعي ومن الكتابات القبطية. هنا الذبيحة هي الوليمة، والوليمة هي اجتماع الكل لتناول "خبز القيامة"، وقد تم تجنيز الأب متى المسكين في ديره حسب هذا الطقس القديم الذي ربما لا زال متبعاً في باقي الأديرة.

ثانياً: لقد لاحظ كل الذين درسوا نقوش القبور القبطية التي تعود إلى بداية العصر المسيحي، أن الميت ترك أصدقاء هنا لكي ينضم إلى أصدقاء في عالم النور "الذي لا تغيب شمسه"، وهو ما نراه في سطور قليلة في أخبار نياحة بعض آباء البرية عن حضور الرب يسوع ومعه الملائكة والشهداء لاستقبال "ملوكي سماوي" للنفس التي تنتقل.

هنا، الموتُ ليس نهاية الحياة، بل نهاية رحلة، لكي تبدأ رحلة أخرى. وعن هذه الحقيقة سجلت الأناشيد المسيحية شرقاً وغرباً الرجاء المسيحي في الانضمام إلى جيش الظافرين من الشهداء والقديسين، وفي طلب معونة أم الكنيسة لكي لا ترتعب النفس أو تخاف من الموت؛ لأن الأم سوف تأتي مع الرب، ليس بقوة ذاتية ولا بقدرة خاصة، بل لأنها سوف تستعد لاستقبال ذلك الابن أو البنت الوافد والوافدة من الأرض، وهؤلاء ليسوا غرباء عنها، ولا هي غريبة عنهم. ولقد أكد الرب نفسه الاحتفال الجماعي بتوبة واحد (لو ١٥: ٧، ١٠)، احتفالٌ تشترك فيه الملائكة، وهو احتفال الكنيسة بكمال رحلة الايمان. هكذا نطلب أن تأتي والدة الإله لكي تغلق أبواب الجحيم؛ لأن هذه الأبواب قد دُمِّرت فعلاً يوم السبت الكبير (سبت النور)؛ ولأن كل ما كان يمنع شركة الانسان في الله وفي الحياة الإلهية قد أُبيد تماماً، وداسه الرب يسوع.

لكن الجدل العنيف الذي أطاح بالعلامة أوريجينوس في القرن الخامس، عندما حُكِمَ عليه في المجمع الخاص بسبب سوء استعمال وسوء فهم التعليم "برد كل الأشياء إلى ما كانت عليه" (أع ٣: ٢١)، أو "أزمنة رد كل شيء"، أو ما عُرِفَ في الكتابات المعاصرة باسم *apocatastasis*، قد أظهر أن فكرة سقوط سلطان الجحيم تحت قدمي الرب يسوع، بدأت تختفي أمام السؤال عن مصير غير المؤمنين، وبدأت فكرة انتظار الجحيم للهالكين تعود، بينما خفتت حقيقة دمار الجحيم يوم السبت الكبير، ولذلك السبب، فإن الدلائل تشير إلى أن الطلبة الخاصة بطلب معونة والدة الإله لكي لا تبتلع الجحيم النفس المؤمنة، هي من التطور الليتورجي الذي جاء بعد القرن الخامس، لا سيما بعد نكبة العلامة أوريجينوس، والتي تلاها إفلات مار اسحق السرياني من نفس النكبة؛ لأنه كان من أبناء الكنيسة المشرقية، التي أطلَقَ عليها أعداؤها اسم "النسطورية"، ولم يكن معروفاً عندما عقد المجمع الخامس.

عموماً، فقد ورثنا اتجاهين كلاهما يعبِّر عن مستوى روحي ونضوج إيماني نراه في النصوص القديمة الخاصة بالموت والدفن.

الاتجاه الأول: يتمثل في الثقة المفرطة الغالبة لكل ما يمكن أن يوصَف بأنه خوف، واتكال تام على المسيح المخلص، وهو سمة عامة.

الاتجاه الثاني: هو اتجاه الانتماء إلى الكنيسة حيث يشعر المؤمن بوطأة وثقل الموت، ولا يريد أن يقف وحده، بل يطلب أن تقف الكنيسة معه: الأم البتول، والملائكة القديسين.

وعلى كل إنسان أن يجد في قلبه وفي حياته ما يجعله حراً في أن يختار، لكن يجب أن نعود إلى تكرار ما سبق وذكرناه، وهو أن المسيح الرب هو الغالب، وأنه يطلب بنا وفينا نحن الذين لا نملك قوة خاصة لكي ندوس أي قوة شريرة.

ولعل طلبة: "**لئلا يبتلعوا نفسي يا عروسة بلا عيب**"، هي طلبة تكشف عن ثلاث قضايا لاهوتية هامة لم تعد معروفة في زماننا؛ لأنها لم تعد تقال، ولم نعد نسمعها:

الأولى: هي زواج النفس الإنسانية في العرس الإلهي بالمسيح الملك، وهو ما تعبِّر عنه طلبة نصف الليل[1] حيث مثل العذارى الحكيمات هو محور الطلبة، ونفس أي مؤمن تدرك أنها –مهما كانت– فهي ليست مثل العروس التي بلا عيب، لكن القديسة مريم لا توزِّع ولا تعطي النعمة التي لديها لمن يطلبها؛ لأن مصدر النعمة هو الله، وهي لا توزَّعُ بيدٍ بشرية، بل هي عطية الروح القدس.

الثانية: إننا نتذكر هنا عدم كمالنا؛ لأنه مهما كانت حياتنا، فهي ليست كاملة، ولكن الملكوت وحياة الدهر الآتي ليست مكافأة على كمال الإنسان، بل هي حسب قول الرب نفسه: "لا تخف أيها القطيع الصغير لأن أباكم قد سُر أن يعطيكم الملكوت" (لوقا ١٢: ٣٢). ولدينا كتاب مرقس المتوحد من آباء القرن الرابع / الخامس بعنوان "ضد الذين يظنون أنهم بالأعمال الصالحة يرثون ملكوت السموات"، وهو ذو دلالة في هذا الخصوص. وهكذا تعكس الطلبة رجاء المسيحي في أن يكون عروساً نقية للمسيح.

الثالثة: الكنيسة ليست جماعة من المؤمنين. فنحن لم نقرأ وصف الكنيسة بهذه العبارة التي تهدم الكثير إلَّا في العصر الحديث، فقد وردت لأول مرة في كتاب مشترك لتدريس مادة "الدين المسيحي" طُبع في الخمسينات، وربما لأنه كان يعبِّر عن الاتجاه العام لدى الذين اشتركوا في تأليف الكتاب من أرثوذكس – كاثوليك – إنجيليين، فاتفقوا على هذه العبارة السهلة المقبولة، لكن بمرور الوقت، سقط في بحر النسيان ما ورد في العهد الجديد نفسه، وهو ان الكنيسة هي:

- جسد المسيح الواحد
- هيكل الله
- بيت الله.

---

(1) ها هوذا الختن يأتي في نصف الليل.

وخلف هذه الأسماء تكمن "الهوية" المسيحية.

والقضية الأكبر ليست هي مسألة الانتماء، بل الحياة الجديدة التي تنسكب من الرأس، من يسوع المسيح نفسه، أي الوجود المسيحي في هذا الزمان والذي ينمو ممتداً نحو الوجود الكامل في الحياة الكاملة، حياة الخلود، ذات الحياة لجسد المسيح نفسه، ذات الوجود لنفس الهيكل الذي حلَّ فيه "ملء اللاهوت" (كولوسي ٢: ٩)، وذات بيت الله المبني من حجارة حية؛ لأن الله لم يعد يسكن في بيوت من الحجر كما شهد شهيد المسيحية الأول اسطفانوس (أع ٧: ٤٦ – ٥٠)، ولكن عندما تضيع الأسماء، تضيع المعاني ومعها تختفي العلاقة، أي علاقة الشركة، أي البناء الجديد.

يسود التفكير الفردي في ظل غياب دور البُعد الكنسي في العلاقة الكيانية بالمسيح وبأعضاء جسده، وهو البُعد الغائب طوال العصر الوسيط، وذلك لغياب مفهوم الكنيسة جسد المسيح. وإن كان الوعي بالكنيسة جسد المسيح قد بدأ يعود إلينا تدريجياً في تقدم ملحوظ من خلال: الكنيسة الخالدة – العنصرة – مع المسيح ... لكن ظل التفكير الفردي، أو "الفرداني" كما كان الأب فليمون المقاري يقول، هو أساس الخلاص الفرداني. كان الأب فليمون المقاري يقول إن: "الفرداني وحيد زمانه لسه معرفش الابن الوحيد"، وهي عبارة قد تبدو ساذجة جداً، ولكنها في أعماقها تلخص مشكلة التربية المسيحية لجيل وربما لأجيال لم تعرف إلَّا "الخلاص الفرداني"، الذي يتمثل في: "اهتم بخلاص نفسك وملكش دعوة بغيرك". في حين أن الابن الوحيد قد جاء لكي يجمع، ولكي يؤسِّس هيكلاً جديداً وشعباً جديداً، ويعيد بناء الإنسانية التي هدمها آدم الأول وشتت وحدتها، ويخلق فيها من جديد، ليس وحدة انتمائية على أساس العرق والدم الواحد مثل اسرائيل القديم، أو وحدة على أساس ممارسة "الشريعة الموسوية" وعبادة "الهيكل الواحد في أورشليم"، بل وحدة تقوم على الشركة في الروح الواحد، أي الروح القدس. الجسد الواحد، أي جسد المسيح. الميراث الواحد، أي الملكوت. الحياة الواحدة، أي الحياة الجديدة. الاجتماع في الاتحاد الأقنومي، أي اجتماع الإنسانية في أقنوم الابن الكلمة. وقبل أن تجرد قلمك عزيزي القارئ الذي قد لا يروق له هذا التعبير: "الاجتماع

في الاتحاد الأقنومي"، عليك بمراجعة التسبحة السنوية، ورسائل القديس كيرلس السكندري؛ لكي ترى أن اجتماع اللاهوت بالناسوت = التجسد، هو أساس اجتماع الثالوث مع الإنسانية، وأن هذا الاتحاد ليس اتحاداً بين فردٍ اسمه يسوع، مع اقنوم. فهذا = الهرطقة النسطورية في جوهرها، بل هو تنازل الله لكي يجمع في تجسده كل البشر، وهو ما جعل الرب يسوع المسيح هو:

- آدم الأخير
- الوسيط
- الشفيع
- الرأس
- البكر
- البداءة

فهذه الألقاب كلها خاصة بالتجسد، وكلها خاصة بتدبير الخلاص، وهي دون أي مساس بكرامة وعمل الرب نفسه، هي الألقاب التي تحدد التعليم الصحيح عن شفاعة القديسين والكنيسة جسد الرب يسوع المسيح الواحد.

فآدم الأخير: هو الذي يجمع الجنس البشري الجديد في كيانه؛ لأن الكل مات في آدم الأول، والكل سوف ينال هبة الحياة في آدم الأخير (١كو ١٥: ٤٥).

الوسيط: وهو وحده الذي يقرب الإنسانية إلى الله؛ لأن ذبائح العهد القديم كلها تعجز عن تقديم أي إنسان إلى الله؛ "لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع الخطايا" (عب ١٠: ٤)؛ لأنه (أي هذا الدم) بلا قوة حياة تغلب الموت.

الشفيع أو الباركليت: لأنه هو المدافع، ليس في محكمة العدل الأرضي، ولا في محكمة عدل سماوية، بل هو المدافع ضد الخطية والموت والدينونة والفساد والجهل، وكل أمراض الطبيعة القديمة؛ لكي يقرِّب الكل إلى الآب.

الرأس: لأنه رأس الجسد الجديد الذي وُلِدَ من الروح القدس، ومن العذراء مريم، وهو لم يولد من أجل ذاته، بل "لأجلنا نحن البشر، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس .. الخ"؛ لكي ينمو جسده ويجمع الكل أعضاء جسده (كولوسي ٢: ١٦-١٩). وهنا يجب أن نتوقف أمام مشكلة الذين يفكرون "حسب الجسد" وحسب قوانين الحياة البيولوجية: كيف يكون المسيح يسوع ذا جسد واحد، ويجمع البشر ذوي ملايين الأجساد؟ سؤالٌ لا علاقة له بقوانين الملكوت، تلك القوانين التي لا تجمع حسب العدد وحسب الأحجام، بل حسب النوعية، وتوحِّد ليس حسب الكثرة، بل حسب جوهر الحياة الواحدة، والكل فيها ليس مجموعة أجزاء لأن التجزُّؤ هو مأساة الموت. والتقسيم الذي جاء به الموت، صار في التجديد توزيعاً، ولذلك حتى صلاة "القسمة"، هي تقسيم الميراث؛ لأن تقسيم الميراث كان عند دخول الأرض، أما توزيع الميراث فهو المسيح نفسه، وحسب الواحد غير القابل للانقسام.

إن هذه القوانين ليست تأملات شخصية، بل هي الاستعلان الذي نراه في الإفخارستيا؛ لأن الخبز الواحد مهما كان حجمه لا يُقاس بالحجم، بل بكرامة العطية. ولا يوزَّع كأجزاء؛ لأننا لا نأخذ جزءاً من جسد المسيح، بل المسيح نفسه، لأن المسيح نفسه غير قابل للانقسام؛ لأنه هزم الموت.

وإذا رجعنا إلى سر الانضمام إلى الكنيسة أي: المعمودية — الميرون — الإفخارستيا، فإننا نولد من جديد، ليس ولادة جسدانية، بل ولادة روحية لا تأخذ قوتها وكيانها من الجسد، بل من الله نفسه. ولذلك، هي مؤهلة من البداية لأن تفقد خصوصية الطبيعة القديمة، أي الفردانية، أي الحياة من أجل الحياة؛ لأن التجسد جاء بحياة من أجل الآخر؛ لأنه "لأجلنا نزل من السماء"، ولأجلنا صُلِبَ ودفن وقام، ولأجلنا تم كل شيء،

ومن أجل الآخر ينزع عنه نرجسية الخطية والسقوط لكي ننال شركة الحياة الجديدة من الآخر يسوع المسيح الرب؛ لكي نكون للآخرين. ولذلك، نحن نُمسَح بآخر، هو روح الحياة الأقنوم الثاني في مسحة الميرون، وندخل الشركة، أي الإفخارستيا لكي نصير جسداً واحداً .. هذه هي مراحل تكوين الحياة الجديدة.

الكيان الجديد:

من يدرس في تأنٍ وعمق، عظات الآباء للموعوظين[1] الذين يستعدون للمعمودية، يمكنه أن يرى أن تجريد الانسان من آدم الأول يبدأ بالمعرفة. وقبل تسليم قانون الإيمان، لم يكن التعليم عن الله كخالق، هو لغسل الفكر من الوثنية فقط، بل لرد الانسان إلى الحقيقة التي لا يجب أن ينساها، وهي أن الكون = الخليقة، وهو نفسه وكل الأشياء هي ملك لله نفسه. هذه دعوة لتهذيب الإرادة وإنارة الفكر لكي يدرك أن الحياة الجديدة ليست حياة خاصة، بل حياة شركة. وعند تسليم الإيمان بتدبير الخلاص، والاتجاه نحو الغرب لجحد كل ما هو مظلم، أي ليس من المسيح، بل هو ضد المسيح، نعود إلى الاتجاه للشرق نحو الرب نفسه نور القيامة وحياة الدهر الآتي، بعبارة ذات دلالة: "ألتصق بك أيها المسيح إلهي". وهي اعتراف بوحدة تمت بواسطة التعليم والإيمان وجحد الحياة القديمة، وعلى هذا الأساس، بنى الآباء التعليم المسيحي برمته: استنارة – تجديد – اتحاد.

وقد ورثنا اتجاهين: **الأول** تربوي، يرى في الانضمام إلى الكنيسة بداية يجب أن يتبعها نمو، ولذلك كانت لدينا عظات بعد المعمودية.

والثاني لاهوتي يرى أن المعمودية بالذات كَسِرِّ الولادة، لا يمكن أن تُعاد؛ لأن الإنسان يولد مرة واحدة، ولكن الميرون يمكن أن يُعاد في حالات الارتداد. أما الإفخارستيا، فهي الغذاء الذي لا يمكن أن يتوقف.

---

(1) شذرات عند العلامة أوريجينوس –كيرلس الأورشليمي – ذهبي الفم – امبروسيوس أسقف ميلان.

والاتجاهان معاً يؤكدان لنا أن الحياة المسيحية تبدأ لكي تنمو وتنال الفداء السمائي. يتضح ذلك مما يأتي:

أولاً: يتكون الكيان الجديد روحياً في النفس، ومن النفس تنتقل بذور الحياة الجديدة إلى الجسد لكي يتكون جسد القيامة موازياً للنفس؛ لأن الطبيعة الانسانية الجديدة لا تنقسم إلى جسد وروح. والموت لا يُقسِّم الكيان الإنساني، بل يكمِّل التكوين الجديد؛ لأن الخلق الجديد يلقي بالعناصر الترابية في تراب الأرض مثل الجهاز الهضمي والكبد والأمعاء .. وكل ما له علاقة بالحياة الأرضية التي تتغذى بما ينتجه تراب الأرض. هنا، ما هو ترابي، يعود إلى التراب فعلاً، لكن يبقى في الجسد صورة أو أيقونة النفس إما مستنيرة وممجَّدة بالروح القدس بسبب شركتها في مجد المسيح، وإما مظلِمة بسبب الانغماس في الخطايا. والقارئ الفطن يستطيع أن يجد هذا بسهولة في العظات الروحية للقديس مكاريوس الكبير.

ثانياً: في الخلق الجديد يتكون "العزم" أو "الإرادة" من نار المحبة الإلهية، ومن العطش إلى الاتحاد بالله. هذه يخلقها الروح القدس مكوِّناً إياها على مثال عزم وإرادة الرب يسوع. وهنا، يبدأ التحول الحقيقي بالرؤيا الروحية، وبالالتصاق بيسوع المصلوب والحي من الأموات. وعندما يحذِّرُنا رسول المسيح من "أعمال الجسد الميتة"، فهو يحذِّرُنا من الاتكال على الجسد. التحول الكبير والأخير –هنا– يتم، ليس في الإرادة فقط حيث تضبط المحبة حرية الاختيار، بل في اختيار السلوك الذي يحفظ النعمة. ولذلك السبب، ليست التوبة في الأرثوذكسية هي تغيير السلوك مثل الإقلاع عن التدخين ... الخ، بل هي تحول الرؤيا الداخلية والانتقال في الاختيار من تفضيل الذات على المسيح، إلى تفضيل المسيح على كل شيء إلى حدِّ الصلب، أو مقاومة العودة إلى المفاهيم القديمة والسلوك القديم المبني على تفضيل الذات، وهو الاختيار الأول لآدم الأول. بينما الاختيار الثاني الجديد لآدم الجديد، هو اختيار المحبة، وهو اختيارٌ ترى فيه النفس جمال وبقاء الأمور الأبدية، وهو ما ينعكس على الجسد نفسه، إذ يبدو في جمالٍ قائمٍ بالهدوء والوقار وسكينة النفس وعدم الاضطراب، مما يعطي حتى لقسمات الوجه، مسحةً ملوكيةً

سماوية. عند نياحة الأب المتوحد والسائح بفنوتيوس اشتعل جسده بنارٍ حتى أن جسده تحول إلى رماد (النص القبطي)، وحتماً هذه هي نار الروح القدس التي قبلها من "الروح الناري" (رسال الأنبا انطونيوس الكبير – الرسالة الثامنة)، وهي ذات النار الإلهية التي تحوِّل كيان المعمدين الممسوحين بالروح القدس، وتظل كامنة، تظهر أحياناً في تجلِّي القديسين مثل أولاد الملوك مكسيموس ودوماديوس والأنبا أرسانيوس، وفي الجيل المعاصر القمص مينا المتوحد والقمص ميخائيل ابراهيم.

ثالثاً: يبقى أمامنا التحوُّل من أجل الشركة في الجسد الواحد، وهو الموضوع الذي سمعناه من الأب متى المسكين، ويظهر في عدة فقرات في شرح رسالة رومية وغلاطية ومقالات أعياد الظهور الإلهي. والقارئ الفطن يعرف ذلك؛ لأن الشرح لا يقدم الخلاص "الفرداني"، بل الاختبار الحي للجماعة، وهو ما حرص عليه رسول الرب يسوع المسيح القديس بولس.

وفي إيجاز شديد نستعرض أهم ملامح ومكونات تحول الفرد وتأهيل الفرد لحياة الشركة، ولعل أهم وأسهل ما يمكن أن يقال هو ما ورد في ليتورجية المعمودية، وفي ليتورجية الإفخارستيا. وربما أدرك القارئ أن الصلوات كلها تقدم عمل الله — النعمة — الغفران — التجديد — التقديس — استعلان الرب يسوع المسيح — حلول الروح القدس، كل هذا في عبارات موجزة عامة لا تخصيص فيها. هذه السمة خاصة بصلوات الجماعة وحياة الجماعة، فكل طلبة تقدِّم النعمة المشتركة، والغفران الذي يشترك فيه الكل، والتقديس واستعلان الرب، وحلول الروح القدس لكل أعضاء الجسد. هذا لا يحوِّل الصلوات إلى فراغ أو عدم، بل هو في الحقيقة والواقع، بمثابة يد الله الثالوث التي لا تميِّز بين عضو وعضو؛ لأن التعليم الرسولي عن "ملء الذي يملأ الكل"، يعني فيض الصلاح الإلهي للكل. ويبقى على كل عضو أن يأخذ على قدر نموه واحتياجه.

إن ما يقدَّم في السرائر الكنسية ليس تفصيلاً ولا تفضيلاً، بل النعمة الوافرة التي قال عنها الإنجيلي: "ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا نعمةً فوق نعمة" (يوحنا ١: ١٤)،

وعلى القارئ أن يلاحظ استخدام كلمة "نحن"، فهي خاصة بفيض النعمة للكل.

الكيان الجديد كشركة:

الدفاع عن شفاعة القديسين بمنهج وأسلوب العصر الوسيط، أدَّى إلى ثلاث مثالب:

أولاً: فقدت الكنيسة أيقونتها، وفسدت هذه الأيقونة عن طريق حشر وسطاء بين المؤمنين والمسيح، وجعل ذلك الكنيسة مؤسسة سياسية أو جماعة لا يربطها سوى النزوع من أجل البقاء، وخلق صورة مشوشة عن الواقع الحي الذي نراه في كل الليتورجيات: المعمودية – الميرون – الافخارستيا – الرسامات – الجناز – الزواج، حيث تجتمع الكنيسة كلها في اجتماع واحد مهما اختلفت وتعددت الأسباب، سواء كانت: معمودية أم رسامات .. الخ. لأن الاجتماع هنا هو اجتماع الرب الرأس مع الأعضاء بلا وسيط. وبلا وسطاء؛ لأن الوسطاء ليسوا هم مصدر النعمة، وليسوا هم "الرُّبُط والمفاصل" التي تجمع الجسد الواحد (كولوسي ٢: ١٦).

ثانياً: أدى ضياع الوعي بالحياة الأبدية باعتبار أن الحياة الأبدية تبدأ بعد الموت وغالباً بعد يوم القيامة وليس هنا على الأرض في الزمان، أدى ذلك إلى اعتبار أن الموت هو الحاجز الذي يفصل بين الأحياء والراقدين. وخلف هذا عاشت فكرة الكنيسة المنتصرة في السماء والكنيسة المجاهدة على الأرض. ومن هذين الاسمين: المنتصرة والمجاهدة، نمت فكرة رئاسة بابا روما. وضاع الاعتراف بالإيمان الذي أُودِع قانون الايمان نفسه: "نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية".

ثالثاً: وطغى الاحتفال السنوي بعيد القيامة على معايشة حياة الرب في الأسبوع الليتورجي الذي يؤكد على جمعة الصلبوت، وقبلها أربعاء خيانة يهوذا، ثم قيامة الرب يوم الأحد، والتي لا تزال صلوات باكر وأناجيل باكر تحفظها. عجيبٌ حقاً أن نبقي على صوم الأربعاء والجمعة، وتضيع منا قيامة الرب في يوم الأحد، أو يوم الرب، أو اليوم

الثامن في الأسبوع. وبالطبع، بعد أن تغيب القيامة، يبقى الموت فاصلاً يقطع ويقسِّم الكنيسة الواحدة.

وهكذا بالطبع، تبدو الشفاعة لمن سقط في مستنقع العصر الوسيط أنها:

- تعدٍّ على عمل الرب.
- لأن القديسين انفصلوا عنا وماتوا.
- وأن القيامة لم تعد تجمع أعضاء جسد الرب في وحدة حياة.

الفصل الخامس

صلاة الجسد الواحد،
الذي لا ينقسم إلى حيٍّ وميتٍ

نظرة شاملة على الكنيسة الجامعة

أولاً:
العصور الأولى

وحدة السماء والأرض:

لم يكن حضور الملائكة في معسكر الشعب القديم أمراً غريباً غير معروف. وسفر المزامير هو خولاجي العهد القديم؛ لأن الوعد بحراسة الملائكة جاء في المزمور (٩١: ١١) وهو المزمور التسعون حسب السبعينية: "لأنه يوصي ملائكته لكي يحفظونك في كل طرقك"، فإذا كان الله يوصي الملائكة بحفظ شعبه، فمن يستطيع أن ينكر أن هذا هو إيمان مغروس على ما قدمه الوحي نفسه، بل يحارب الملائكة ضد قوات الظلمة في المزمور الخامس والثلاثون (راجع عدد ٦)، بل يحمل الملاك جبرائيل رسالة من الله للنبي دانيال لكي يفهم الرؤيا (٨: ١٦)، بل قامت حرب بين الملاك ميخائيل والشيطان حول

جسد موسى (رسالة يهوذا ١: ٩). ولم يكن الملائكة فقط مع الأنبياء، بل أرشد ملاك الرب هاجر إلى الماء عندما كادت أن تموت من العطش (تكوين ١٦: ٧-٨). ومن هنا جاءت التسبحة: "ملاك الرب ينصب معسكره حول خائفي الرب لكي يخلصهم" (مزمور ٣٤: ٧).

ولأننا لسنا بصدد الملائكة في الكتاب المقدس، بل فقط عرضنا بعض الأمثلة لكي نؤكد الحقيقة الغائبة، أن وحدة السماء والأرض نالت قوتها بتجسد الله الكلمة، إذ جاءت بشارة الملائكة للرعاة وتسبيح الجند السماوي (لوقا ٢: ١٤)، ثم قيادة يوسف لكي يقبل الحبل بيسوع وولادته (مت ٤: ١٠-١١). ولا يجب أن ننسى أن بشارة تجسد ابن الله جاءت بملاك (لوقا ١: ٢٦-٢٨).

لكن مأساة الذين يشتمون شتائم مقنَّعة أنهم فقدوا البعد السمائي، وأنهم كنيسة أرضية فقط، انفصلت عن السماء.

شهادة الآباء بعد العصر الرسولي:

في حقيقة الأمر، إن تقسيم عصور الكنيسة، ليس لأن الكنيسة كان لها أكثر من وجود، بل كانت ولا تزال الكنيسة الواحدة، لكن جاء التقسيم إلى عصور من أجل سهولة البحث وتحديد تاريخ الأحداث والأشخاص والحوار اللاهوتي نفسه.

أخطاء تاريخية تعبِّر عن نظرة مذهبية بلا تاريخ:

الخطأ الأول: هو أن نظن أن ما سُجِّل في العهد الجديد هو المقياس الوحيد للإيمان. ووجه الخطأ التاريخي هو إنكار الامتداد التاريخي لكنيسة رأسها المسيح يسوع نفسه، وأساسها الرسل، واستمرارها في كل جيل ومكان وزمان. الامتداد التاريخي هو الحياة الواحدة التي تحملها الأجيال لكي تُسلِّمها إلى الأجيال الأخرى. والتسليم الكنسي تعبِّر عنه أوشية الاجتماعات: "ولعبيدك الآتين بعدنا إلى الأبد"؛ لأن هذه هي مسئولية الكنيسة في كل عصر.

بل إن التسليم الكنسي تراه واضحاً حتى عند الذين يهاجمون أم الشهداء، فهم لا زالوا يحترمون قيادتهم التاريخية والحديثة معاً مثل لوثر وكالفن وإبراهيم سعيد – ولبيب مشرقي – توفيق صالح – صموئيل حبيب – توفيق جيد، وأسماء أخرى. هم حقاً لا يطلبون شفاعة أو صلوات هؤلاء؛ لأنهم فقدوا الصلة الحقيقية في الخدمات (العبادة) بهؤلاء، لأنهم "موتى"، مع أن كتابات هؤلاء لا تزال تُقرأ .. لماذا تقرأ كتاباً لشخص مات؟ لأن ما في الكتاب يساهم في تطوير وتنوير الحياة وتقدم الفكر وهو عصارة حياة. فَهُم على نحو ما لا زالوا معنا على الأقل فكرياً طالما أن الوعي الروحي عند هؤلاء لم ينفتح بعد على قيامة الرب وهدم الموت، بل إبادته إبادة كاملة والاحتفاظ بكل أعضاء المسيح، أي أعضاء جسده حيةً.

الخطأ الثاني: هو سوء قراءة الآباء وسوء فهم تاريخ العقيدة. فعندما بحث قس إنجليكاني في عام ١٨٤٧ عن طلب شفاعة أو صلوات القديسين[١] كانت نقطة البداية أن "الخدمة" أو (العبادة) هي للمسيح وحده، وأنه لا يجب أن نصلي للعذراء والملائكة والقديسين. والخطأ اللغوي ظاهر؛ لأن طلب صلوات هؤلاء ليست صلاة توجه لهؤلاء، ولذلك حرصت الكنيسة على أن تقول: "اطلبوا عنا" في المجمع الكبير في صلاة نصف الليل. كما أن القس السابق ذكره لم يكن له دراية ومعرفة دقيقة بالتاريخ الكنسي، وأول أخطاء هذا القس هو عدم إدراكه أن الوثائق المسيحية القديمة لا تعطي لنا صورة كاملة من حياة الكنيسة إلَّا بعد أن ظهرت الكنيسة على وجه الأرض بعد ٣٠٠ سنة من المطاردة والاضطهاد الذي تعرَّضت له في كل ولايات الامبراطورية الرومانية. والذين كتبوا في القرون الثلاثة الأولى كانوا إما من المدافعين مثل الشهيد يوستينوس، أو من الرعاة مثل أكليمنضس الروماني، أو من الشهداء مثل أغناطيوس الانطاكي. وبالنسبة لهؤلاء كان مجال الكتابة محدوداً بالمناسبات نفسها كالدفاع عن الإيمان، أو تعزية وتشديد وتشجيع المؤمنين، ولذلك لم تبدأ الكتابات لشرح الإيمان نفسه إلَّا في القرن الثالث. بالطبع سبق

---

(1) James Endell Tyler: Primitive Christian Worship.
وقد أُعيد نشره على Kindel- amazon وطبع بعد ذلك ونُشِر على amazon

الكل إيرينئوس، وكان مدافعاً، وما وصلنا هو دفاع عن التعليم الرسولي، والاسم وحده يكفي "ضد الهرطقات" الذي فنَّد فيه الغنوصية ورد على مزاعم قادتها.

ولم يكن غريباً أن تظهر أول مقالة عن المعمودية، وهي مقالة ترتليان، إلَّا بعد ٢٠٠ سنة تقريباً (وربما أكثر) من انتشار الإيمان، وكذلك في نفس الفترة وصلنا "التقليد الرسولي" لمن نكتب عنه عربياً أبوليدس – هيبوليتوس.

والخطأ الثالث: هو أنه رغم كل هذه الوثائق، إلَّا أن الصورة الكاملة لم تدوَّن قبل عظات القديس كيرلس الأورشليمي في نهاية القرن الرابع وانتشار شرح الأسفار الذي وصل إلى القمة في الرابع والخامس. من هنا كان استخدام اسم *Primitive Christian Worship* هو إيحاء بأن لدينا أول وأقدم مصادر، وهي لم تكن أصلاً قد كتبت عن العبادة، بل حتى دفاع الشهيد يوستينوس احتوى على سطور قليلة عن عبادة الكنيسة. ومن المضحك أن الاسم *Worship* هو أخطأ الأسماء كلها مثل الاسم "عبادة"، كلاهما يفضح الأصل العرقي المتأخِّر، فالأول هو لغة الأنجلوسكون، وهي وافدة إلينا من عصر الإقطاع، وهي تعني تقديم التكريم لمن يستحق التكريم السيد النبيل والأمير. والثاني عربية – عبرانية، وهي تعني ما يقدمه العبيد، بينما حفظ العهد الجديد اليوناني والقبطي أيضاً كلمة λατρεία[1] وتعني الخدمة، وهي أصلاً تعني خدمة الثالوث لنا، وليس خدمتنا نحن للثالوث؛ لأننا نأتي لكي نغتسل ونتطهر ونتقدس ونشترك في الحياة الإلهية، والذي يقوم بخدمتنا هو رئيس الكهنة والروح القدس أيضاً، ولذلك انحدرت علاقتنا بالثالوث من مستوى الخدمة الإلهية التي يخدمنا الله بها إلى مستوى العبادة. فقد انحدرت مكانة الإنسان من ابن إلى عبد. وصار رب الكنيسة، رأس الجسد ساكناً في السماء. وتحولت كلمة خدمة ليتورجية إلى كلمة عبادة.

---

(١) الفعل λατρεύω ورد ٥ مرات في العهد الجديد ومنه جاءت كلمة ليتورجية أع ١: ٢. أما السجود فهو جزء من الخدمة، فإن الفعل πρσκυνέω هو خاص بالسجود أحد مكونات الخدمة. ونحن نسجد لمن يخدمنا اعترافاً بالنعمة الإلهية.

كنت أسمع في صعيد مصر من الجيل السابق على الجيل الذي وُلِدَ في الثلاثينيات من القرن الماضي، قول الشخص أنه ذاهب إلى الكنيسة "ليقُدِّس"، وهي كلمة تعني الاشتراك في تقديس السرائر، ولكن ثقافة المجتمع وانحصار دور اللغة القبطية، جاءت بكلمة عبادة، التي أبادت كل إحساس بالتواضع الإلهي عن ابن الإنسان الذي لم يأتِ لكي يخدمه الآخرون، بل لكي "يخدم ويبذل نفسه فديةً عن كثيرين".

وإذا أضفنا إلى ما سبق، ليس فقط غياب الفهم التاريخي، بل التعنت في دراسة التاريخ الكنسي، حقَّ لنا أن نتساءل: لماذا يُعتبَر دفاع الشهيد يوستينوس أهم من عظات كيرلس الأورشليمي؟ عند علماء التاريخ من الشيع الإنجيلية يُعد قِدَم دفاع يوستينوس (حوالي ١٥٠ م) دليلٌ على أن ما جاء بعد ذلك لا قيمة له، ولكن الدراسة الدقيقة تُظهِر ليس فقط التلاحم والاستمرارية، بل العقيدة الإيمانية الواحدة، ويجب إضافة الحقيقة اللغوية مثل اعتبار المعمودية ميلاداً سمائياً جديداً، واستنارةً، وتبنِّ .... إلخ

فإذا كان الجواب هو "القِدَم"، أي أن يوستينوس أقرب تاريخياً إلى عصر الرسل من كيرلس الأورشليمي، فالخطأ الظاهر بوضوح هو إنكار استمرار ذات الحياة الكنسية، وكأن الزمان هو مقياس الأصالة. ولكن العهد الجديد نفسه هو الشاهد الأول على ما غاب بعد ذلك من فكر هؤلاء الباحثين، وهو:

* وحدانية جسد المسيح الكنيسة.

* ووحدة السماء والأرض تحت رأس الوسيط الواحد ربنا يسوع المسيح. وغياب موضوع الكنيسة ظاهر، حتى أنه لم يدخل كأحد بنود قانون الإيمان إلَّا في ٣٨١ أي عندما أكمل الآباء قانون الإيمان النيقاوي في ٣٢٥ وجاء الاعتراف "بكنيسة واحدة" مقدسة جامعة رسولية. فقد أحاطت بالكنيسة الشيع والبدع والجماعات التي رأت أن تنتسب إلى دعوة الانجيل كلٌّ حسب مزاجها واختيارها، ولعل القارئ لا يعلم أن اسم "هرطقة" جاء من الفعل اليوناني "يختار"، وهو اختيار مبني أصلاً على رفض، وليس على اختيار حرٍّ، مثل الأبيونية، وهي دعوة للتهود كان من المستحيل أن تقبل إلوهية المخلص

وتنادي بشريعة موسى كوسيلة للخلاص، في حين أنه لا مصالحة بين الاثنين؛ لأن إلوهية المخلص تجعله الوسيط الوحيد، بينما وساطة الشريعة، تلك التي أطلق عليها رسول المسيح "أعمال الناموس" لا تفيد ولا تقدم أي نعمة للإنسان، وهو محور رسالة بولس إلى غلاطية، لا سيما الإصحاح الأول والثاني والثالث.

ولأن الإيمان بالكنيسة لم يكن موضوعاً مطروحاً للاعتراف في القرون الأولى قبل ٣٨١ فإن ذلك يعود إلى دقة ووضح الإيمان بالإفخارستيا جسد المسيح، فهو الجسد الذي يجمع المؤمنين، ويجعل كل مؤمن واحداً مع الرب ومع غيره بالانضمام إليه في سر الانضمام: المعمودية – المسحة – الإفخارستيا، الذي أشار إليه رسول المسيح في إيجاز في (١كو ١٢: ١١-١٣).

ولكن، ولأن الأسرار كانت تُقلَّد عند الشيع وعند الهراطقة، جاء الاعتراف بالكنيسة كضرورة في بيئة وصل فيها التفتُّت إلى حد إنكار وجود الكنيسة بسبب الانضمام إلى (كنائس) لا تعترف بالثالوث مثل جماعات الأريوسيين، وأخرى لا تؤمن بالتجسد مثل أتباع مرقيان .... الخ.

ثانياً

أقدم الشهادات

عن وحدة الكنيسة الجسد الواحد،

وشفاعة القديسين

١- يقول راعي هرماس عن وحدة السماء والأرض (حوالي سنة ١٨٠ وما بعدها):

"أمَّا الضعفاء المتراخين في الصلاة والذين يتكاسلون عن طلب أي شيء من الرب (يسوع)، لكنهم لا يعرفون أن الرب كلي الرحمة ويعطي دون أن يتأخر كل الذين يسألونه .. أما أنت يا هرماس وقد نلت مساعدة الملائكة القديسين وحصلت من الرب على شفاعتهم (الملائكة) ولم تعد متكاسلاً .." (٣: ٤ و٥).

ولعل التدقيق في النص يعيد إلينا فرح الرب نفسه، ودعوة الرب نفسه للملائكة للفرح معه بتوبة واحد خاطئ (لو ١٥: ٧، ١٠).

٢- ويدعِّم هذا ما يذكره القديس أكليمنضس السكندري في كتاب المتنوعات (حوالي ٢٠٨)، إذ يقول هو أيضاً:

"هذا هو المسيحي الكامل (الغنوسي الحقيقي) الذي يصلي الصلاة النقية؛ لأنه يصلي مع مجمع الملائكة؛ لأنه هو نفسه صار ملائكياً، وهو لا يبتعد قط عن حراستهم (الملائكة)، ومع أنه يصلي وحده إلَّا أن معه خورس القديسين واقفين معه في الصلاة" (المتنوعات ٧: ١٢).

٣- أعمال الشهداء ٢٠٤ م

"ونحن نخبركم يا اخوة أيها الأطفال الأعزاء ما سمعناه وما لمسناه بأيدينا حتى أن من حضر منكم، أو من كان غائباً يتذكر مجد الرب. هذه الأشياء نخبركم بها لكي يكون لكم شركة مع الشهداء، ومعهم يكون لكم شركة مع ربنا يسوع المسيح الذي له المجد" (The Passion At. Perpetue PL 3: 16).

٤- ساتورنينوس أسقف تولوز من القرن الثالث

"لأننا عندما نكرم وبكل احترام، ونحتفل بآلام أولئك الذين أُخِذوا من بيننا، وبعيداً عنا تقدسوا بالاستشهاد المفرح. وإذا سهرنا في الصلاة والتسبيح واحتفلنا بالسر في الأيام التي نالوا فيها الإكليل، وصلينا لكي ننال معونتهم وشفاعتهم عند الرب ... دعونا نهتم ولا نهمل أصدقاء الله ومحبيه لأنهم ليسوا موتى، بل لنحترمهم كأحياء، ولأننا إذا صلينا بثقةٍ وبدون شكٍ، سوف نحصل على شفاعتهم" (Ruinat pp 109 – 113 The Acts of St. Saturninus).

٥- حديث امرأة عجوز مع الشهداء الفرس الذين استشهدوا في زمن سابور Sapor ٣٤٤م

"أنتم تعظمونه بدمائكم، ولذلك لي سؤال واحد منكم، أرجوكم أن تستجيبوا له، وهو أن تسألوا الرب الذي أحببتموه، والذي لأجله ستُذبَحون، أن يجعلني مستحقة أن أراكم عندما يأتي يومي، وأن أدخل معكم إلى حيث ستذهبون، وأن أكون بقربكم؛ لأنني امرأة خاطئة، وأنا أؤمن أنكم إذا سألتم الرب، فسوف يغفر لي خطاياي" (Acta Mart. 1: 107).

٦- يوستينوس الشهيد

"لقد اتُهمنا ودُعينا ملحدين، ونحن نعترف بأننا ملحدون إزاء الآلهة المزيَّفة، وليس

بالنسبة للإله الحقيقي وآب البر والرحمة الذي فيه كل الفضائل، وليس فيه شَرٌّ بالمرة. هذا الإله الحق، ومع الابن الذي جاء منه، والذي علَّمنا هذه الأشياء عن كل جموع القوات الصالحة من الملائكة القديسين التي تخدم الله وتتشبه به، وأرواح الأبرار والأنبياء التي نوقرها ونطلب صلواتها. وبالعقل والحق دون أدنى تردد نعلِّم كل من يبتغي أن يتعرف على إيماننا" (الدفاع الأول: ٦).

٧- القديس إيرينيئوس عن العذراء مريم

"رَغِبَ اللهُ مريم أن تطيعه لكي تكون مريم العذراء المدافعة عن العذراء حواء. وكما ربط الجنس البشري برباطات الموت بواسطة عذراء، فهو الآن يخلص بواسطة عذراء. إن الميزان الآن تتساوى كفتاه. معصية عذراء يقابلها طاعة عذراء" (ضد الهرطقات ٥: ١٩).

٨- عظة ثيؤدوريتوس أسقف أنقرة عن شفاعة العذراء مريم في مجمع أفسس الأول ٤٣١.

"أيتها العذراء، أيها الفردوس الذي هو أعظم من فردوس عدن .... السلام لكِ، والسلام لاسمكِ يا مريم، يا عِطر عدم الفساد ... أنتِ معجزةٌ فائقة يا مريم الأم حاملة الإله؛ لأنكِ أحضرتِ لنا النور الذي أنارنا. عندكِ يا مريم ينبوع الحياة وثدييكِ الروحانيتين فيهما اللبن العديم الغش. إلى ينبوع هذا اللبن نُسرِعُ يا مريم لكي نرتشف عِطراً وحلاوة، ونحن لا ننسَ ماضينا واحتياجاتنا، بل نقدم لكِ طلبات خاصة بمستقبلنا أيضاً".

٩- وفي عام ٢٣٣ تقريباً كتب العلَّامة أوريجينوس أول مقالة عن الصلاة، ومحور المقالة هو "رئيس الكهنة ربنا يسوع المسيح"، فهو الذي يجمع الكل حوله في الصلاة، وهو موضوع سوف ندرسه بكفاية في مناسبة أخرى، لكن لم يغب عن وعي الكنيسة كلها أن يسوع هو رأس الكنيسة الذي به تقدِّم الكنيسة كل صلواتها. والكنيسة كلها هي

المسيح يسوع ومعه كل الأعضاء الأحياء والراقدين أيضاً .. لذلك يقول العلامة العظيم:

"ليس رئيس الكهنة وحده الذي يصلي مع الذين يصلون حقاً، ولكن الملائكة أيضاً الذين يفرحون في السماء بتوبة واحد خاطئ أكثر من ٩٩ باراً لا يحتاجون إلى توبة، وأيضاً نفوس القديسين الذين انتقلوا. هذا واضح من الذبيحة العقلية التي قدَّمها الملاك رافائيل عن طوبيا وسارة .. وأيضاً أرميا الذي يظهر في المكابيين محاطاً بالجلال، بل مجد فائق وعظمة حوله تجعله يبسط يده اليمنى لكي يعطي سبط يهوذا سيفاً من ذهب. ويضاف إليه رجل آخر قديس كان قد مات يشهد ويقول: "هذا هو الذي يصلي بلجاجة من أجل الشعب والمدينة المقدسة أرميا رجل الله (راجع متى ١٨: ١٣ – لوقا ١٥: ٧ طوبيت ١٢: ١٢ – ٣: ٢٤ السبعينية – ٢ مكابيين ١٥: ١٣)، والرجل القديس هو الكاهن أونياس (٢مكابيين ١٥: ١٢ – ٢ مكابيين ١٥: ١٤)" (فصل ١١: ١).

ولا يقف العلَّامة العظيم أوريجينوس عند هذا، بل يقول عن وحدانية المحبة التي تجمع كل اعضاء الجسد:

"وكما أن المعرفة تُستعلَن للقديسين الذين يعاينون كل شيء، كما لو كان في مرآة، ولكن بعد ذلك وجهاً لوجه (١كو ١٣: ١٢) فلا يبدو غير معقول أن نستخدم مقاربة بين المعرفة والفضائل لأن ما يُستعلَن في هذه الحياة سوف ينال الكمال في الحياة الآتية. والآن أعظم الفضائل حسب كلمة الله هي محبة القريب (متى ٥: ٤٣)، ويجب علينا أن نؤمن أن القديسين الذين ماتوا لا زالوا يملكون هذه المحبة بدرجة أعظم، وهم يحبون الذين لا زالوا يصارعون في هذه الحياة بمحبة أعظم من محبة الذين لا زالوا تحت ثقل الضعف الإنساني وهم منشغلون بالصراع مع اخوتهم الضعفاء. والقول: إن عضواً واحداً يتألم، تتألم معه باقي الأعضاء، وعضواً واحداً يمجَّد تفرح معه باقي الأعضاء (٢كو ١١: ٢٨ كما ورد في الأصل) لا يخص الذين على الأرض فقط ويحبون اخوتهم، بل يمكن أن نقول بكل لياقة هم يحبون الذين غادروا هذه الحياة

.. والمسيح نفسه يتفق مع هذا قائلاً إن كل قديس يمرض هو نفسه مريض، وهو أيضاً المسجون وهو العريان والغريب والجائع والعطشان (متى ٢٥: ٣٥ — ٤٠). ومن منا لا يأخذ البشارة بكل جدية لا يعرف أن المسيح كان يشير إلى ذاته عندما قال إن كل ما يحدث من أوجاع للذين يؤمنون به هو يعتبرها أوجاعه الخاصة" (المرجع السابق ١١: ٢).

هكذا تظهر وحدة الحياة ووحدانية المحبة، أو رباط الكمال، أو وحدانية المحبة التي تطلبها الكنيسة في القداس الغريغوري "وحدانية القلب فلتتأصل فينا".

وبعد أن يذكر خدمة الملائكة للرب نفسه أثناء تجسده (فقرة ٣) يسأل العلَّامة:

"كم ملاكاً من الذين خدموا يسوع يود أن يجمع مع يسوع أبناء إسرائيل كل واحد من الشتات، ويخلِّص كل خائفي الرب الذين يدعون باسمه (اش ٢٧: ١٢ — يوحنا ١٠: ١٦ - أع ٢: ٢١ — رو ١٠: ١٢) أليس هؤلاء الملائكة يقدمون خدمة أكثر من خدمة الرسل لكي تنمو الكنيسة؛ لأن يوحنا يقول في الرؤيا إن ملائكة قائمون لخدمة الكنائس (رؤ ١: ٢٠ — ٢: ١ — ٣: ١ -٧ -١٤). فليس عبثاً أنه قيل إن ملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان وأنهم يعاينون بالعيون التي استنارت بنور المعرفة" (يوحنا ١: ٥١ هوشع ١٠: ١٢ س).

وفي الفقرة ٤ يقول مؤكداً أن الملائكة لا يعملون حسب قدراتهم، بل حسب وصية الرب نفسه لأنه

"أثناء الصلاة يتذكر الملائكة بواسطة الذي يصلي كل الأمور التي يطلبها المصلي، ويعمل الملائكة ما يستطيعون عمله حسب الوصية العامة التي قبلوها".

فالصلاة هي عمل المحبة وهي التي تجمع الكل.

وعن كرامة الجسد البشري يقول العلَّامة أوريجينوس:

"إن الجسد الذي تحل فيه النفس العاقلة، لا يُطرَح بدون وقارٍ مثل أجساد البهائم. ونحن المسيحيون نؤمن باحترام الجسد الذي سكنته نفسٌ عاقلة، ولوِّنَ بالعقل الذي حلَّ فيه، ولذلك فهو يعطي من يقترب منه؛ لأن من يقترب منه له نفسٌ أيضاً تتقبل من هذا الجسد كما لو كان وسيلةً نافعةً، ما في النفس التي جاهدت الجهاد الحسِن" (Contra Cels v111: 30).

١٠- في الرسالة إلى كورنيلوس أسقف روما يقول الشهيد كبريانوس (٢٥٣):

"لنذكر كل منَّا الآخر حسب الاتفاق، أينما كنَّا على هذا الجانب أو الجانب الآخر للحياة، علينا أن يذكر كل منَّا الآخر. لأنه بتنازل وسرعة عمل المحبة، فمن منا يسبق الآخر، فإن محبتنا سوف تستمر في حضرة الرب، وصلواتنا من أجل الأخوة والأخوات لن تتوقف في حضور آب المراحم" (٥٦: ف ٥).

١١- وتعتبر عظة القديس ميثوديوس (٣٠٥) على سمعان الشيخ وحنة النبية هي أقدم ما وصلنا عن شفاعة أم النور، فهو يقول في هذه العظة:

"سلامٌ أبديٌّ لكِ يا عذراء والدة الإله، أنت فرحنا الدائم، وإليك أتوجَّه من جديد. أنت بداية العيد، بل أنت وسط ونهاية العيد؛ لأنك اللؤلؤة الفائقة الثمن التي للملكوت .. أنت المذبح الحي الذي قُدِّمَ عليه خبز الحياة (الرب يسوع). أنت الحلوة مانحة العطايا. أنت الأم المشرقة مع نور الشمس؛ لأنك تضيئين بنورٍ ولمعانٍ ناري بمحبتك النارية؛ لأنك تقدمين لنا ذاك الذي حبلت به .. أنت تعلنين السر الخفي ابن الآب غير المرئي ملك السلام الذي -بشكلٍ لا يُوصف- أعلن نفسه في حقارتنا .. لذلك نطلب منك أيتها الفائقة بين النساء التي نالت مجد الأمومة الفائق وكرامتها، أن تذكرينا دائماً دون انقطاع أيتها القديسة والدة الإله أسألك أن تذكريني أنا الذي أمدحك والذي بكل فخر يذكرك الآن طالما هو حي؛ لأنك حيَّة إلى الأبد .. وأنت يا سمعان الوقور كان أول من أخذ في حضنه إيماننا أن تكون شفيعاً لدى مخلصنا الله .."

١٢- وكان ذكر القديسين يتم في خدمة الإفخارستيا حسب القانون ٢٠ من قوانين مجمع غنغرا (حوالي ٣٢٥)، ولكن قبل ذلك توجد إشارة واضحة لحفظ أجساد الشهداء في استشهاد الشهيد الأسقف بوليكارب (١٨: ٢):

"وجمعنا عظامه كما لو كانت أغلى من الأحجار الكريمة والذهب الخالص، ووضعناها في مكان مناسب".

وقد نقل هذه السيرة كاملة غايوس أحد تلاميذ ايريناوس.

وفي استشهاد الأسقف أغناطيوس الأنطاكي أخذوا ما تبقى من الجسد ولفّوه في كتان مثل كنز لا يقدر بثمن للكنيسة المقدسة .. وبعد أن يسجل تاريخ الاستشهاد يقول:

"نحن شهود عيان، نكتب شهادتنا بالدموع. لقد أمضينا الليل كله خلف الباب في البيت، وأغلب أوقات الليل كنا راكعين في الصلاة سائلين معونة الرب لكي يقوينا؛ لأننا ضعفنا بسبب ما حدث. وبعد برهة، نمنا لفترة قصيرة، فرأيناه بغتةً واقفاً معنا يعانقنا، بينما رأى البعض منا أن القديس أغناطيوس واقفٌ يصلي ويباركنا. وقد أخبرناكم بيوم وساعة استشهاده حتى إذا اجتمعتم معاً تشتركون مع المحارب والشهيد النبيل الذي للمسيح الذي داس الشيطان تحت قدميه وأكمل سعيه حسب مسرة المسيح محب البشر" (استشهاد اغناطيوس فقرة:٧).

في هذا المجال كان الاحتفاظ بقبول الأنبياء معروفاً في العهد القديم، حيث سجل سفر الملوك الثاني جثة الميت الذي ألقاه المشيعون على قبر أليشع ولما لمس "عظام أليشع قام حياً" (٢ ملوك ١٣: ٢٠-٢١).

١٣- وحسب شهادة كيرلس الأورشليمي (٣٥٠م عظة ٢٣: ٩) يقول:

"ونحن نذكر الراقدين أولاً البطاركة والأنبياء والرسل والشهداء لكي بصلواتهم وتضرعاتهم يقبل الرب توسلاتنا".

وقبول الصلاة هنا هو بكل يقين طلب الوحدة الكاملة لكل الكنيسة في أعضاء جسد المسيح على الأرض وأعضاء نفس الجسد في السماء.

١٤- ولذلك يقول القديس هيلاري أسقف بواتييه (٣٦٥):

"عندما نشاء، فإننا نحصل بالحقيقة على حراسة وتعضيد الملائكة. وكذلك لا يجب أن نستهين بحماية الرسل والبطاركة والأنبياء، أو الملائكة؛ لأنهم مثل حراسٍ حول الكنيسة" (In ps PL.9: 682).

وأيضاً:

"الذين يقفون للصلاة لا يفتقرون إلى حماية القديسين والملائكة (شرح مزمور ١٢٤: ٦).

١٥- ومن العبارات المأثورة للقديس مار افرام قيثارة الروح القدس (٣٧٠) وهو يشعر بنهاية حياته:

"أيها الشهداء الظافرون الذين احتملوا العذابات لأجل الله والمخلص، أنتم لديكم جسارة الحديث مع الرب نفسه. أيها القديسون اشفعوا فينا نحن الجبناء والخطاة من البشر؛ لأننا امتلأنا بالتراخي لكي تحل علينا نعمة المسيح ولكي تستنير قلوبنا جميعاً ونحبه (شرح انجيل مرقس ٨: ١٣).

وأيضاً:

"كن شفيعاً لي. طلباتي ليست أثقل (في الميزان) من دمك؛ لأن صلاتي ربما لم تصل إليك. الله لم يحاسبك على شيء لأنه لم يكن لك ما تُحاسَب عليه عنده.

إذا ما ساعدتني سراً (داخلياً)، سوف أمجدكَ علانيةً؛ لأنه بدون مساعدتك لا أستطيع أن أتحدث عنك.

في عيدكَ سوف أُنشدُ تسابيحكَ مع اخوتكَ. لذلك اعطني خمراً حتى أُفرِّح الذين يحبونكَ" (Hymn vol. II.16.19.20 Lamy vol. II. 701).

وأيضاً:

"يا رب اعطنا فرحاً، وعندما يدخل الأبرار إلى حضرتكِ، لا تطردنا، بل اجعلنا معهم.

امنحنا أن نُحسَب معهم عندما يقومون.

المجد لمن أكثر من انتصاراتكم. المجد لمن عظَّم أعيادكم.

في الاحتفالات بأعيادكم سوف أُنشِدُ تسابيه (يسوع) الذي أكثر من انتصاراتكم، وسوف أُنشِدُ مديحاً لذخائركم. بسبب معونتكم قد فُتِحَ الكنز.

الجراحات تستدعي دائماً وجود الطبيب، يا ليتكم تحضرون الشفاء للقروح والجراح.

يا أيها الأقوياء والشجعان، قوموا واشفوا جراحات الذين سقطوا" (أناشيد مقدمة إلى المعترفين والشهداء، وإلى شهداء سبسطية الأربعين، Lanny Vol. II, p 701).

ويقول أيضاً:

"أدعوكم أيها الشهداء غير المغلوبين يا من حاربتم بشجاعة وانتصرتم على ضيقات الاضطهادات، اطلبوا من المسيح عنا لأنه لا يشاء أن يرى أحداً قد خاب أو مُنِعَ من رحمته.

سلام يا سيدتنا والدة الإله، يا من تصلين كثيراً لأجلنا لكي ما نخلص" (Paraenesis 54).

ويقول أيضاً:

"اذكروني يا ورثة الله وأخوة المسيح وتضرعوا للمخلص بحرارة لأجلي لكي يحررني المسيح من ذاك الذي يحاربني كل يوم" (الخوف من نهاية الحياة ١: ٤).

١٦- وطبعاً، القداسات القديمة كلها حفظت هذه الممارسة التي سُجِّلت على شاهد قبر Pectorius وتعرف باسم شاهد Autan ويقول النقش:

"الجنس الإلهي للسمكة[١] السمائية. احفظوا القلب النقي لأنكم نقلتم من الموتى إلى الخالدين بواسطة المياه الإلهية (المعمودية). انعش نفسك يا صديقي بالمياه الدائمة التدفق من كنز الحكمة التي توهَب. أقبل الطعام الحلو لمخلص القديسين، وتغذَّى حاملاً السمكة في يديك. أصلي للرب والمخلص ولأمي الحلوة التي رقدت ومعها أخي في سلام السمكة أن تذكر بقطوريوس".

وأيضاً

"لنذكر الكلية الطهر السيدة الطاهرة والدة الإله العذراء كل حين مريم، وجميع القديسين والأبرار حتى نجد رحمةً بصلواتهم وشفاعاتهم" (قداس يعقوب الرسول).

---

(١) السمكة هي في اليونانية ΙΧΘΙΣ يسوع المسيح ابن الله مخلصنا Ιησυς Χριστος Θεου Υιος Σωτηρ .

وأيضاً:

"يا والدة ربنا يسوع المسيح، اطلبي عني للابن الوحيد الذي وُلِدَ منكِ لكي يغفر تعدياتي وآثامي ..." (قداس عيداس وماري السرياني).

١٧– غريغوريوس الثاؤلوغوس، القسطنطينية، ٣٧٩م عن كبريانوس الشهيد الأنطاكي الذي استشهد في زمن دقلديانوس ومعه يوستينا حوالى سنة ٣٠٤، يقول:

"يا ليتك تنظر إلينا من علو السماء يا كبريانوس، وأن تقود كلمتنا وحياتنا وكراعٍ ارع معي هذا القطيع المقدس، وقدم لهم معي كل ما هو مفيد، واطرد الذئاب القاسية، والصيادين الذين يصطادون بالحرف، ويوقعون البسطاء بفخاخ الكلمات، وفرحنا بالنور الكامل النقي للثالوث القدو الذي يقف أمامه، والذي نعبده ونمجد لأننا معاً أنت ونحن نجاهد لأجله (الثالوث)" (Orat. in Land St Cypriani P 635: 1193).

وأيضاً:

"الشهيد مع باقي الشهداء في السماء يقدمون ذبائح لأجلنا ويصلون لأجل الشعب، وإن كان قد غادرنا، إلَّا أنه لم يفارقنا.

لعلك يا باسيليوس، أيها الرأس المقدس تنظر من علو السماء إلينا. والشوكة التي في الجسد والتي أعطانا الله إياها، بصلواتك انزعها أو هبنا أن نحتملها. يا ليتك تقودنا في ل عملٍ صالح، وعندما نغادر هذه الدنيا اقبلنا في مظالك" (Orat in Land St. Basil P 636: 601 -5).

وفي صلاته إلى القديسين، يقول:

"يا أيها الساكنون مع الشهداء، اصنعوا معروفاً واقبلوا في أحضانكم ابن غريغوريوس ونوننا Nonna كذلك الذين اجتمعوا واشتركوا في الصلاة عند المقابر المقدسة" (Carm 50,1:2 p 638:20).

وأيضاً:

"كثيراً ما أنقذتنا من الأمراض لأنك نلت رضاء الله. لذلك خلصني الآن يا أبي غريغوريوس بصلواتك المقتدرة، وأنتِ كذلك يا أمي نوننا يا من رقدتِ وأنتِ تقدمين الطلبات بفرحٍ" (Carm 81. P 638: 53.).

١٨– القديسة يوستينا وشفاعة العذراء

في عظة للقديس غريغوريوس الثاؤلوغوس في سنة ٣٧٩ في مدينة القسطنطينية عندما أخبر الجموع قصة يوستينا وكبريانوس (الأنطاكي) كيف استخدم كبريانوس السحر لكي يُسقِط يوستينا في حبائله، وكيف كانت يوستينا تقاوم بالصلاة واللجوء إلى الله، يتابع غريغوريوس عظته قائلاً:

"وإذ تذكرت يوستينا المعونة والحماية الإلهية، بدأت يوستينا تطلب من العذراء مريم أن تحميها؛ لأنها عذراء مثلها وأنها في خطر، وكانت يوستينا تحصن نفسها بدواء الصوم وبالنوم على الأض بدون فراش، وذلك حتى تمنع جمالها من أن يصبح فخاً لها، ولكي ما تنجو من التجربة، ولكي ما تحوز على رضاء الله بالإيمان والانسحاق".

ويمضي القديس غريغوريوس ليصف كيف استجاب الله صلاة يوستينا وكيف سندتها العذراء حتى أنها حصلت على تاج الشهادة، وكيف كان استشهادها عاملاً هاماً في اهتداء كبريانوس حتى أنه استشهد هو أيضاً (Greg. Nazianz. Orat 24:11. In Land St. Cypriani PG. 35: 1182).

ويذكر سوزومين المؤرخ الكنسي أن ظهور السيدة العذراء في الكنيسة التي كان يصلي فيها غريغوريوس الثاؤلوغوس نفسه لعدد من المؤمنين في القسطنطينية، وكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى تكاثر الجموع حول غريغوريوس والقضاء على البدعة الأريوسية حتى دُعيَت الكنيسة باسم "القيامة"؛ لأن الإيمان النيقاوي كان قد مات، ولكنه قام بسبب ما كان يحدث في الكنيسة من معجزات (سوزومين، التاريخ الكنسي ٨: ٥).

١٩– امبروسيوس اسقف ميلان (٣٩٣):

"لعل بطرس الذي بكى بحرقة من أجل نفسه، لعله يبكي لأجلنا نحن أيضاً لكي يضيء علينا وجه المسيح" (شرح الأيام الستة ٥: ٢٥–٩).

٢٠– كيف ينتهر جيروم Vigilantius (٤٠٦):

"تقول في كتابك إنه في هذه الحياة نستطيع أن نصلي كل من أجل الآخر، ولكن بعد ذلك عندما نموت لا يمكن أن تُسمع صلاة من مات لأجل آخر .. ولكن إذا كان الرسل والشهداء عندما كانوا في الجسد قادرين على الصلاة من أجل الآخرين لأنهم كانوا في غاية الاهتمام بالآخرين، فكيف لا يكونوا كذلك بعد أن نالوا أكاليل الغلبة والانتصار" (ضد فيجيلانتوس فقرة ٦).

٢١– كيف يؤكد أوغسطينوس نفس التعليم بوحدة جسد المسيح:

"الشعب المسيحي يحتفل معاً في الصلوات الكنسية بذكرى الشهداء؛ لأنهم يشجعوننا على التشبُّه بهم، وعلى شركة حياة الفضائل التي اقتنوها، ولأنهم يساعدوننا نحن بصلواتهم" (ضد نستوس الماني ٣: ٣).

ويقول في العظة ١٥٩: ١:

"يوجد ترتيب كنسي يعرفه المؤمنون، وهو عندما تُقرأ أسماء الشهداء بصوت مسموع عند مذبح الله، فإننا لا نصلي من أجل الشهداء؛ لأن الصلاة من أجل الراقدين في ذكراهم هي للراقدين فقط، وخطأ أن نصلي من أجل الشهداء؛ لأننا نحن أنفسنا يجب علينا أن نوصي بطلب صلواتهم".

وفي كتاب مدينة الله (٢٠: ٩، ٢) يقول:

"لا تنفصل نفوس الأتقياء الراقدين عن الكنيسة؛ لأنهم الآن في ملكوت المسيح، وإلَّا

لماذا نذكرهم عند مذبح الله إلَّا لأنهم في شركة جسد المسيح الكنيسة".

وفي العظة ٨٤ على إنجيل يوحنا يقول:

"عند مائدة الرب نحن لا نذكر الشهداء بنفس الأسلوب الذي نذكر فيه الذين رقدوا في سلام، بل بالحري نحن نطلب من الشهداء أن يصلوا لأجلنا لكي نتبع خطواتهم".

وفي نصٍّ ذي دلالة يقول أغسطينوس:

"لا تحتوي ديانتنا على عبادة الموتى. لأن الذين عاشوا بيننا في التقوى لم يرغبوا في مثل هذه الكرامة، بل كانت مسرتهم أن يعبدوا الذي أنار حياتهم، وجعلهم يسبحونه لأنه وهبنا نصيباً في ميراثهم. لذلك، فنحن نكرم القديسين لكي نقتفي أثرهم لا لكي نعبدهم. وبخصوص الملائكة، فإن أعظمهم يعبد ما يعبده أحقر الناس؛ لأنه عندما عبد الإنسان غير الله فسدت طبيعته؛ لأن حكمة الملاك وحكمة الإنسان هما من واحد، وكذلك ينبوع الحق هو واحد لكليهما الملاك والإنسان، أي الله غير المتغير في حكمته. وهذا ما أُعلِن لنا في الزمان، أي عندما أراد الله بحكمته غير المتغير، الذي هو واحدٌ معه في الجوهر، وشريك الآب، اتخذ لنفسه طبيعة البشر لكي يعلِّم البشر أن الذي يُعبَد هو من تعبده كل الخلائق العاقلة، أي الله. وهذا ما يجب علينا نحن أن نؤمن به أن أقدس الملائكة والأرواح التي تخدم الله، تشتهي أن نعبد معهم الإله الواحد ... لذلك، نحن نكرم الملائكة لأننا نحبهم لا لأننا عبيد لهم. ونحن لا نبني الكنائس لعبادتهم لأن الملائكة يعرفون أننا –بشرط أن نكون في حالة الصلاح– هياكل الله العلي، ولذلك نقرأ بكل صواب عن إنسان منعه الملاك من السجود له (رؤ ٢١: ٩)، بل أن يسجد لله الذي تخدمه كل الملائكة" (De vera religion 45 PL 3a: 169 - 171).

ويقول أيضاً:

"استفانوس الخادم معنا لا يُعبَد كإله لأنه يصلي كأي خادم لأن الرسول يوحنا

الإنجيلي يعد ما شاهد كل هذه العجائب اضطرب وسجد للملاك. إنسان يسجد لملاك، ولكن الملاك رفض وقال له قم اسجد لله لأنني أنا خادم معك ... (رؤ ٢١: ٩)" (Serm 319 De Steph Mart VI. PL 38: 1442.).

ويقول أيضاً:

"يعرف المؤمنون أنه حسب القوانين الكنسية، أنه عنما يُذكَر الشهداء أثناء الخدمة عند مذبح الله، فإننا لا نصلي لأجل راحتهم، على الرغم من أننا نصلي من أجل كل الراقدين؛ لأننا نخطئ إذا صلينا من أجل راحة شهيد لأننا نحن الذين نحتاج إلى صلاته" (Serm 159 PL 38: 869).

"نحن لا نصلي من أجل راحة الشهداء، وإنما من أجل باقي المنتقلين؛ لأن الشهداء لا يحتاجون إلى معونتنا، بل نحن الذين نحتاج إلى حمايتهم" (Serm 285 PL 38: 5).

"يجتمع المسيحيون وبكل وقارٍ يحتفلون بتذكارات الشهداء حتى يقلدونهم، ولكي ما ينالوا من استحقاقاتهم[١] ولكي ما تساعدهم صلواتهم" (Contra Faurt 20: 21).

٢٢- يوسابيوس القيصري المؤرخ الكنسي:

"الذين تألموا من أجل مجد المسيح لهم شركة دائمة مع الله الحي" (ك ٥: ١).

وأيضاً:

"من عادتنا أن نذهب إلى مقابر الذين أحبوا الله، حتى ما نصلي معهم، ولكي نكرمهم، وهذه الأشياء مستحقة المديح" (Praep Evang. 13:11).

وعن شفاعة الشهداء أنفسهم، يروي يوسابيوس هذه القصة عن إحدى عذارى

---

(١) الاستحقاق هنا هو المصير الأبدي، لا بالمعنى القانوني السائد في لاهوت العصر الوسيط، والذي يعني المكافأة، بل بالمعنى اللاهوتي، أي من نال نعمةً أُعطيت له وحفظها.

الاسكندرية ، وهي بوتامينا تلميذة العلَّامة أوريجينوس، فيقول:

"ساقها أحد الجنود لكي تُقتَل، وإذ تصرف باسيليدس معها بكثير من الرقة والعطف، قالت له بوتامينا: إنها سوف تتوسل إلى ربها من أجله بعد رحيلها، وإنه سوف ينال سريعاً جزاء الشفقة التي أظهرها من نحوها. وبعد أن استشهدت، سُئل باسيليدس أن يحلف، فرفض لأنه لا يجوز له أن يحلف البتة لأنه مسيحي. وعندما وُضِعَ في السجن جاء بعض الأخوة وسألوه عن سبب هذا التغيير المفاجئ والعجيب، فقال إن بوتامينا بعد استشهادها وقفت بجانبه ثلاث ليال متوالية، ووضعت تاجاً على رأسه وقالت إنها توسلت إلى الرب من أجله، ونالت طلبتها، وأنها سوف تأخذه سريعا ..." (تاريخ الكنيسة ٤: ٥، ترجمة القمص مرقص داود، ص ٢٦٠ – ٢٦١).

٢٣– إيمان الكنيسة الجامعة: القديس باسيليوس:

"حسب إيمان المسيحيين الذي بلا عيب، والذي قبلناه من الله نفسه، أنا أعترف متوافقاً معه أنني أؤمن بالله واحد ضابط الكل، الله الآب والله الابن والله الروح القدس. وأنا أخدم وأعبد إله واحد في ثالوث، واعترف بتدبير الابن في الجسد، وأن القديسة مريم ولدته حسب الجسد، ولذلك هي والدة الإله. واعترف أيضاً بالرسل القديسين، والأنبياء، والشهداء وأطلب صلواتهم لدى الله لكي بواسطة هذه الصلوات وشفاعتهم يرحمني الله الرحيم، وأن يكون لي فدية عن خطاياي، ولذلك أنا أُقَبِّل وأحترم رسمهم في الأيقونات؛ لأن هذا سُلِّم لنا من الرسل القديسين ونحن لا نمنع الأيقونات لأنها في كنائسنا" (رسالة ٨ إلى Caesareans).

وأيضاً:

"القوات الروحية في السماء قيل إن بعضهم كله عيون لأنهم يحرسوننا، والآخر كله آذان لأنهم يسمعون صلواتنا" (Homin Ps 33: 11).

٢٤- القديس جيروم

"إذا كان الرسل والشهداء وهم في الجسد قد استطاعوا أن يصلوا من أجل الآخرين في ذات الوقت الذي كانوا يهتمون فيه بأمورهم الخاصة، فكم وكم بعدما تُوِّجوا بتيجان الانتصار؟" (Adv Vigilant 7.).

"لبرهةٍ أتخيل وأتصوَّر مجازاة الأتعاب الوقتية، أي ما لم تره عين وما لم تسمع به أذن وما لم يخطر على قلب إنسان. ما أجمل هذا اليوم عندما تجيء مريم والدة الإله وتقابلك ومعها خورس العذارى عندما تعبرين البحر الأحمر حيث يغرق فرعون وكل جنوده (الشيطان)، عندئذٍ تخرج مريم أخت هارون (رمزاً لمريم العذراء) بالدف لتقود التسبحة وتغني ويجيبها العذارى: "فلنسبح الرب لأنه بالمجد قد تمجد ... (خر ١٦)" (Ep 13.Ad Eustoch.).

٢٥- أبيفانيوس أسقف سلاميس بقبرص

"لا يجب أن نكرم القديسين إلى حد الإفراط، بل علينا أن نكرم ربهم وسيدهم، وعلينا أن نضع حداً لانحرافات هؤلاء الناس الذين يدَّعون أن مريم إلهة، لأنها لم تكن، ولم ينزل جسدها من السماء، بل وُلِدَت من أبوين مثل باقي الناس، ولكن -مثل اسحق- أُعطيت بوعدٍ خاص وبتدبير إلهي. ولكن هذا لا يعني أن يقدم الناس الذباح لاسمها؛ لأن من يفعل ذلك يهلك نفسه، ولا يجب أن ينحرف أحد إلى هذا الاتجاه الآخر ويصبح معانداً ويهين العذراء. حاشا لأنها عذراء قبل وبعد أن ولدت المخلص" (Haer 78: 23 PG 42: 735 – 7.).

"بكل تأكيد كان جسد العذراء مقدساً، ولكنها لم تكن إلهةً. بالحقيقة هي العذراء ومكرَّمة أكثر من غيرها، ولكنها لم تُهَب لنا لكي نعبدها لأنها هي نفسها تعبد ذاك الذي بالجسد وِلِد منها، وقد جاء من حضن الآب إلى أسفل. لذلك، فإن الإنجيل نفسه يحصننا بكلمات الرب نفسه: (مالي ولك يا امرأة لم تأتِ ساعتي بعد). ولقد

دعاها هنا امرأة حتى لا يفترض أحدٌ أن العذراء القديسة كان لها طبيعة تسمو عن طبيعة الناس، وكما لو كان الرب يتنبأ هنا عن ضلالات الهرطقات والشيع" (Ibid 79: 4. PG 42: 755).

"من يكرم الرب يكرم قديسيه، ولذلك من يحتقر أي قديس يحتقر رب هذا القديس، لذلك لتكن مريم العذراء القديس الإناء المختار المقدس" (Ibid 78: 22 PG 42: 733).

٢٦- يوحنا ذهبي الفم، عن طبيعة العلاقة مع الشهداء والقديسين:

"إذا كنا نلتمس ملجأً فعلينا أن نلتجئ لأصدقاء. لذلك، عندما يؤدبك الله، التجئ إلى أصدقائه الشهداء والقديسين الذين أرضوه والذين لهم ثقة ودالة παρρησια للحديث معه" (Adv Judaeos 8: 50. PG 48. 937).

وأيضاً:

"بالحقيقة ما أكثر اقتدار صلوات القديسين، ولكنها تأتي بالثمر عندما نتوب نحن. لأن موسى الذي أنقذ أمه وستة آلاف آخرين معه من غضب الله، لم يستطع أن ينقذ اخته. لا أقول هذا حتى نكف عن طلب صلوات القديسين، بل حتى لا نهمل ونتثاقل ونتكاسل وننام تاركين خلاصنا للآخرين" (In Matt Hom 5: 4,5).

وأيضاً:

"علينا أن نلتمس المعونة في شفاعة القديسين وأن نترجاهم ليصلُّوا لأجلنا. لكن علينا أن لا نكتفي بصلواتهم، بل أن نهتم بأمورنا وأن نجاهد دائما لننمو ونتغير إلى الأفضل؛ لأن هذا يضع أساساً للشفاعة التي تُقدَّم عنا" (In Cop XIX Gen Hom 44. PG 54: 408).

وأيضاً:

"نحن نحتفل بالشهداء. لكن كرامة الشهداء هي مجد ذاك الذي لأجله استشهدوا. نحن نكرم الشهداء لأنهم تألموا لأجل المسيح، ولكننا نعبد المسيح الذي تألم لأجلنا كلنا" (In Memoriam Mart Anon. PG 50. 827).

وأيضاً:

"لنصلِّ جميعاً ... متخذين من المبارك ملاتيوس شريكاً في صلواتنا؛ لأن له قوة أعظم الآن، ومحبة متقدة من نحونا حتى أننا نحن المجتمعين حول الصندوق الذي يحتوي جسده Θηκη نجد أنفسنا فيما بعد معه في مظاله الأبدية" (De St Meletio Antiochen 3 PG 50. 520).

وأيضاً:

"لتكن لنا محبة مشتعلة للقديسين. لنطرح أنفسنا أمام ذخائرهم، ولنجتمع في كنائسهم؛ لأن مثل هذه الكنائس فيها قوة تصدر عن عظام القديسين، ليس في أيام الأعياد فقط، بل في كل يوم. لنحاصرهم (القديسين) ونلح في الطلب حتى كما لو كنا نرغمهم على معونتنا؛ لأن لهم دالة واقتدار، وقد كان لهم ذلك أثناء حياتهم على الأرض، فكم بالأولى الآن بعدما ماتوا لأنهم يحملون سمات المسيح، وعندما يتطلعون إلى جراحاتهم، يشعرون بأنهم يستطيعون أن يطلبوا من الملك. لذلك فلنسأل من خلالهم رحمة الله" (De Ss Bernice et Prodoce 7. PG 49: 640).

وأيضاً:

"في حماية البار يوجد جماعات من الخدام من الملائكة والأنبياء وجماعة الرسل والشهداء، ولا يجب أن نظن أن الشهداء فقط يصلُّون لأجلنا، بل الملائكة يطلبون إلى الله لأجلنا في الضيقات، وهم لا يطلبون فقط، بل يحصلون على الذي يطلبونه.

لأن النبي زكريا يقول: "وتكلم الملاك معي وأجاب وقال هكذا قال الرب"، وكانت صلاة الملاك: "أيها الرب ضابط الكل حتى متى لا ترحم أورشليم ... لأن هذه هي السنة السابعة"، وماذا حدث بعد ذلك؟ هل رفض الله صلاة الملاك؟ كلا، بل بكل تأكيد لأن النص يقول: "فأجاب الرب الملاك الذي تكلم معي بكلمات عزاء"(زكريا ١: ٨، ١٢، ١٣)" (De Uno Legislation PG 52: 527).

رسالة إلى من يطلب العودة إلى آباء الكنيسة

هذه هي شهادة الآباء التي يدعو د. القس سامح موريس، أتباعه للعودة إليها. فهل هو صادق فيما يقول؟ أم أن هذا مجرد شعار ودعاية لجمع أكبر عدد من أبناء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية؟ لعله يجيب.

شفاعة القديسين عقيدة ثابتة، وممارسة واحتفالٌ ثابتٌ من شهادة التاريخ، وما يذكره الآباء بعد ذلك، فلنعِ ذلك جيداً.

ملحق القسم الأول

الدالة والشفاعة

ورَدٌّ موجز على
الذين غاب عنهم الوعي الكنسي[١]

(١) مقال نُشِر على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية في ٢٠١١.

أولاً

الدالة والشفاعة

لقد تاهت المعايير الكنسية الصحيحة في عصرٍ غاب عنه الحديث والتعليم الصحيح عن الكنيسة "جسد المسيح الواحد". وفي غياب ما يحمله هذا الاسم ويؤكد عليه من علاقة عضوية بين الرأس يسوع وبين الأعضاء (١كو ١٢: ١١ – ١٣)، يفتح هذا الغياب أبواب التهور في أحكام القطع والمنع من التناول أو الخدمة.

كما يفتح هذا الغياب أيضاً باب التفسير الفردي الذي يمسك فيه شخصٌ ما بكلمات الوحي الإلهي لكي يحول الكنيسة جسد المسيح الواحد إلى عدة جماعات أو أفراد متباعدين لا تربط بينهم إلاَّ المشاعر والأفكار المشتركة (إذا وجدت في عصر الانقسامات والتشرذم).

لماذا نصلي كلٌ من أجل الآخر؟ هل يحتاج هذا الأمر إلى شواهد من العهد الجديد؟ "مصلين بكل صلاة وطلبة" (أفسس ٦: ١٨)، "صلاة الإيمان تشفي المريض" (يع ٥: ١٥). ويقول رسل الرب: "أمَّا نحن فنواظب على الصلاة" (أع ٦: ٤)، بل يطلب الرسول أن يتفرغ الذين تزوجوا للصلاة والصوم (١كو ٧: ٧)، بل ويطلب الرسول مساعدة الكنيسة في الصلاة من أجل خدمته (٢كو ١: ١١)، بل يطلب من أجل كنيسة روما "متضرعاً دائماً في صلواتي" (رو ١: ١٠)، ولاحظ: "ذاكراً إياكم في صلواتي" (أفسس ١: ١٦)، بل سوف يهب الله له الحياة بصلاة فليمون (فل: ٢٢).

لماذا لا يكتفي الأخ الذي يحتج على شفاعة القديسين، بشفاعة المسيح وشفاعة

الروح القدس، حسب قوله؟ وإذا كانت شفاعة المسيح وشفاعة الروح القدس هي التي تمنع شفاعة القديسين، بل وتبطلها حسب تعليم المذهب الإنجيلي الذي غاب منه – وعن وعي – الذين يتمسكون بما ينادي به هذا المذهب، فماذا يقول الأخوة الإنجيليون عن الكنيسة؟ وهل سبق أن حظي تعبير "جسد المسيح" بأي اهتمام في الكتابات الإنجيلية المصرية؟

أقول لهذا الأخ، عليك أن تلاحظ ما يواجهه من مقاومة، ما يذكره الأب متى عن الكنيسة، ودفاع رهبان الدير — في كتابين – عن الأصول الآبائية الأرثوذكسية لكتابات الأب متى المسكين (راجع الكتاب الأول عن الكنيسة جسد المسيح).

لقد غاب ذات التعليم عن الكنيسة جسد المسيح عند الأرثوذكس الذين يهتفون ويصفقون (مع زغاريد النساء) لقيادات كنسية أخذت مكان المسيح الرب في الكنيسة.

وبالطبع، غاب التعليم بأن الإفخارستيا تكوِّن *makes* الكنيسة؛ لأن عشاء الرب أصبح هو موضوع الحوار الساخن في ساحات الرمز والاستعارة، وتحوُّل تجسد الرب – الذي له جسد حقيقي – إلى مجرد رمز وذكرى، عندما يأخذ الأخوة الإنجيليون عشاء الرب. ويحتج هؤلاء بأن الرب في السماء التي صعد إليها لأنه لم يعد معنا إلاَّ في الذاكرة.

هل قرأنا وسمعنا في العصر الحديث – قبل كتابات الأب متى المسكين، وترجمة رسائل القديس أثناسيوس عن الروح القدس – بأن الرب يسوع معنا وفينا بالروح القدس؟!!

أعود إلى الكنيسة التي تصلي كلها للأسباب التي سُلِّمت إلينا، وهي ذات الأسباب التي نراها في التعليم الرسولي نفسه المدون في الأسفار:

أولاً: كل صلاة في الكنيسة هي صلاة تقدَّم للآب من خلال الرأس يسوع المسيح. وقد قال أوغسطينوس في العظة على مزمور ٢١: "إن الخاطئ يعترف، ويعترف

معه الرأس، ليس لأن الرأس أخطأ، بل لأن كل علاقة شركة مع الآب هي من الأعضاء للرأس، يسوع وبقوة الروح القدس". وعندما نصلي كلٌ من أجل الآخر، فالصلاة ليست قاصرة على مَن يطلب؛ لأن الرب يعمل في كل الأعضاء – ويعطي "الفرد الواحد من أجل الكل، ويعطي الكل من أجل الواحد" هذا هو المبدأ الذي يشرح صلاة الكنيسة.

ثانياً: الشفاعة هي توسُّل، والتوسُّل هو طلبة الكنيسة كلها وليس طلبة شخص واحد بعينه. والشفاعة والتوسُّل هي كلمات تحدد الهدف الذي لأجله تطلب الكنيسة، فهي تطلب الشفاء للمرضى – مواهب الروح القدس للشهادة (هذه ممنوعة في الوقت الحاضر). هذه كلها من الأعضاء للرأس وبواسطة الرأس.

ثالثاً: عندما يتصور صاحب السؤال أن العذراء والرسل والملائكة هم في السماء، بينما نحن على الأرض، ويفصل بيننا وبين هؤلاء مسافة (لا أدري كيف يحدد أحد ما هذه المسافة)، تبدو لنا الشفاعة – عندئذٍ – وكأنها تدخُّل في عمل الابن، الذي هو ذاته عمل الروح القدس والآب أيضاً.

لكن الأيقونة الحقيقية هي أن الذين على الأرض جميعاً هم الذين يأتون إلى "مجمع" القديسين وإلى جماعة الرب الأحياء في أورشليم السماوية. هؤلاء كما يقول رسول الرب هم سحابة الشهود، ولكن هذا المعنى ضاع من جيلٍ يجهل معنى الشهادة الشهود، تحت مطارق الخوف، بل و"التقية" التي ضربت كل شيء عندنا (تراها في توزيع كتب الأب متى المسكين سراً وكأنها نوع من المخدرات).

أمَّا الشهود، فهم معنا؛ لأن الشاهد ليس "غائباً"، وغياب الشاهد يجعله عاجزاً عن الشهادة. الشهود أحياء وليسوا موتى كما يقول البعض – والشهود لم ينالوا كل المواعيد؛ لأنهم لن ينالوها بدوننا (عب ١١: ١٣). الكنيسة "تكمُل" بحياة الأعضاء معاً، أمَّا الانقسام الذي نعانيه، فهو كسرٌ في قارب الحياة يدخل منه المذهب الفردي، مع أباطيل الاستعانة بشواهد الكتاب المقدس لتبرير الانحلال والضعف الذي نعانيه.

فالكنيسة حية بالكل، وحياة المسيح تجمع والدة الإله وكل القديسين معاً. والصلاة هي صلاةٌ في يسوع.

الدالة، والشفاعة لدى المسيح: "ليس لنا دالة عند ربنا يسوع"، هي الكلمة اليونانية القبطية παρρησια وتعني حسب قاموس العهد الجديد اليوناني:

- الجرأة في الكلام – الشجاعة – الكلام المتجاسر (مرقس ٨: ٣٢).
- الكلام علناً (كولوسي ٢: ١٥).
- الكلام بلا مانع (أعمال ٢٨: ٣١).
- الثقة في الكلام أو الطلب (١يوحنا ٣: ٢١ – ٢كو ١٥: ٣).

هذا موجز لاستعمال الكلمة في العهد الجديد.

هذه الجرأة، وتلك الشجاعة تجد مصدرها في:

* ميلاد المسيح من العذراء، وهو حدث التجسد الإلهي. الحدث الدائم الذي جمع الإنسانية كلها في الأم، وهي مريم التي ولدت رب الوجود يسوع ابن الله.

لقد غاب معنى تجسد الرب عن الوعي، لأنه لو عاد إلى الوعي أن **الإنسانية في مريم** ولدت الله الكلمة، لأدركنا أن ما حدث – وهو يفوق كل قدرات الخيال – قد أعطى لنا في مريم هذه الجرأة وتلك الثقة في علاقة الأم العذراء بمن ولدت، ليس لأنه بعيدٌ أو منفصل عنَّا، أو هو في السماء وحدها وليس على الأرض، بل لأنه هو رأس الكنيسة.

غير ذلك لا يعدو أن يكون خرافات قبطية معاصرة تجعل أحفاد العصر الوسيط يقولون بكل استهتار إننا لا نملك الاقتراب من المسيح. وبكل استهتار أيضاً ينكرون "محب البشر"، ويقولون "نحن لا نستحق أن نأتي أو نتكلم مع الرب".

هذا جحدٌ تام للعلاقة الشراكية، أي علاقة الشركة التي لنا في يسوع ابن الله. إنكارٌ للبنوة وعودة إلى حالة "العبيد"! وعندما يقول اللحن إن رب الوجود جالسٌ على

حجر الأم العذراء؛ فهو يعبِّر هنا عن اندفاع المحبة الإلهية وتنازلها؛ لأن مريم التي حملت الله الكلمة هي أيقونة الكنيسة التي تحبل وتلد الأبناء الذين يُولدون من الماء والروح مثل ولادة يسوع، "ليس من جسد ولا دم ولا من مشيئة رجل، بل من الله" (يوحنا ١: ١٣).

هذا جاء وحل فينا أو سكن بيننا لكي يجمع الكل فيه.

* الشجاعة والجرأة التي لنا لا تعود إلينا، بل إلى التجسد، إلى ذلك الاندفاع الإلهي بقوة التواضع الإلهي. ومريم لا تطلب إلاَّ في يسوع، ولا دالة لها إلاَّ في يسوع، وهي تطلب البتولية للعذارى، والإيمان والقداسة لكل من يريد أن يقدم أبناءً لله مثل بولس الذي يمر بمخاض الولادة حتى يتكوَّن (يتصوَّر) المسيح في قلوب الغلاطيين الأغبياء (راجع غلاطية ٣: ١ – ٤: ١٩).

فأيُ كتابٍ مقدس نتحدث عنه؟

هل استقر في وعي الأرثوذكس أن العهد الجديد مثله مثل العهد القديم، تدوين لتاريخ وحياة الذين قبلوا الاستعلان الإلهي؟ أي هل قبلوا الكتاب المقدس باعتباره تسليماً، أم حَسِبوه مجرد ذلك المجلد الذي يمسك به كل فرد على حدة؛ لكي يقطع به رقاب الذين يختلفون معه، ويأخذ كلمات الروح القدس لتصبح سكاكين يقطع بها أوصال الجسد الواحد؟

مَن الذي يقول إن العذراء أفضل وأقدس من أي مسيحي؟

إن صاحب هذه المقولة لم يستوعب بعد سر المعمودية وسر سكنى روح يسوع فيه؟ من أين جاءت فكرة أن هناك قديسين أكثر قداسة من قديسين، أو أن هناك درجات في ملكوت السموات، البعض أقرب والبعض بعيد؟ ... هذه صورة مجتمع الطبقات الذي استند إلى شرحٍ خاطئ لكلمات الرسول: "إن نجماً يمتاز عن نجم في المجد" (١كو ١٥: ٤٠)، تلك الكلمات التي بُترت وقُطعت من سياقها، فقرأ هؤلاء الشُّراح مجتمع الملكوت قراءةً طبقية، وتركوا كلمات الرسول الواضحة جداً:

- أجسام سماوية – أجسام أرضية.
- مجد السماويات شيء – مجد الأرضيات شيء.
- مجد الشمس شيء – مجد القمر آخر (١كو ١٥: ٣٩ – ٤١).

ولكن الرسول عاد ليقول: "هكذا في قيامة الأموات يُزرع في فساد ويُقام في عدم فساد – (١كو ١٥: ٤٢ – إلخ). فلم يكن الكلام هنا عن مكانة القديسين، بل عن طبيعة الأجساد. أمَّا جسد القيامة فهو جسد واحد.

العذراء القديسة ليست أقرب للرب من أي مسيحي مؤمن. مَن يقول هذا هو من ينكر أن الكل أعضاء في جسد الرب. وما العبارات الفخمة عن القديسة مريم إلاَّ تعبيرات عن النعمة التي سوف تكون لنا، والتي وُضِعَت أمامنا عن علاقة حميمة قوية، هي ذات العلاقة المفتوحة والمقدَّمة لكل نفس مسيحية.

إنني أقول هذه العبارات: "ليس لنا دالة ... الخ"، ليس لأنني بلا نعمة، بل لأن النعمة منحتني هذه الشجاعة. وليس لأن القديسة مريم لها دالة عند الرب لا مثيل لها، بل لأن هذه الدالة هي الشجاعة، شجاعة الأم ومحبتها لمن ولدت، ولمن هم أولاد مع يسوع البكر الولد الذي ولدته.

لقد تغنَّى شعراء السريان: إفرام ويعقوب وغيرهما بالعذراء مريم، ولكن أناشيد هؤلاء تعدت العذراء إلى إظهار مجد الإنسانية التي ولدت الله الكلمة.

من الطبيعي جداً أن تصبح فكرة وحدة الجسد الواحد، فكرة غريبة على نساطرة القرن العشرين، كما كانت غريبة على النساطرة الأُوَل. وبنفس القدر تصبح هذه الفكرة غريبة أيضاً على الذين ينكرون تجسد الرب كحقيقةٍ تُعاش في السرائر وفي الصلاة. وكما فعل النساطرة الأُوَل، هكذا يمزق النساطرة الجدد "الجسد الواحد" بكلمات الكتاب المقدس، عن جهل وكراهية.

يا أم النور صلي لأجلنا؛ لكي نصبح مثلك في عرس الملك السماوي يسوع المسيح.

ثانياً

شفاعة الروح القدس الرب المحيي

الفعل اليوناني ἐντυγχάνω

استُخدم الفعل في الترجمة السبعينية حسب المعنى الكلاسيكي القديم: في دانيال ٦: ١٣ – مكابيين الأول ٨: ٣٢ بمعنى تقديم شكوى أو طلب معين.

في العهد الجديد استخدم القديس بولس ذات الفعل في شكوى النبي إيليا المقدَّمة ضد إسرائيل، ومع أن الترجمة العربية نقلت المعنى "إيليا كيف يتوسل إلى الله ضد إسرائيل" (رو ١١: ٢) إلاَّ أن المعنى لا يستقيم بالمرة، فلا توسل في الشكوى، لأن النبي يشتكي ويحتج[١].

ولكن الفعل يتعدى تقديم طلب أو شكوى، وقد ورد ثلاث مرات في (رو ص ٨):

المرة الأولى التي ورد فيها هذا الفعل في (رو ص ٨) كانت عن أن الروح القدس "يشفع فينا بأناتٍ لا ينطق بها" (٨: ٢٦)، والأنات من "الأنين"، وهي ليست لغة الشكوى، ولا هي أيضاً لغة التوسل السائدة في المجتمع حيث يسود الأقوياء على الضعفاء، ويبحث الضعيف عن إنسان قوي أو ذي شأن لكي يتوسل من خلاله. لا يجب أن نُسقِط *project* الانحلال الاجتماعي على الله مثلما فعل ذلك واحد من

---

(١) ورد هذا النص في الترجمة الكاثوليكية التي نشرتها دار المشرق بلبنان، هكذا: "أولا تعلمون ما قال الكتاب في إيليا؟ كيف كان يخاطب الله **شاكياً** إسرائيل فيقول".

الإكليروس يقول بكل جسارة: إن الرب يسوع قال للآب وهو معلق على الصليب: "سامحهم علشان خاطري"!! هذا تهافت مصدره التربية الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي لا تنتمي إلى حق الإنجيل. لأنه عندما يدخل الفكر السياسي في شرح أسفار الله، أي أسفار الكتاب المقدس، فإن الله يصبح مثل الفرعون أو "الباب العالي" الذي لا يمكن الدخول إليه إلَّا عن طريق وسيط وبروتوكول.

لا بُد أن نكون على وعي تام بأننا عندما "نُسقِط" هذا التصور السياسي على الله نفسه، فإننا نهدم وحدة الحياة الإلهية أو وحدانية الجوهر الالهي للثالوث. كما نحذف من الوعي ومن العبادة (الخدمة) الايمان الصحيح بإلوهية الروح القدس، وبإلوهية الرب يسوع، ونتصور أن الأقنوم الثالث والأقنوم الثاني هما معاً أقل من الآب. وهذه عودة مقنَّعة للأريوسية.

لا يقبل الايمان المستقيم (الأرثوذكسي) التعرج بين فرقتين: الأولى تؤمن بوحدانية الجوهر ولا تفصل الأقانيم. والثانية تفصل وتخلق "تراتبية"، أي رتب *ranks* في الثالوث، فيكون هناك أعظم وأقل، والأعظم هو الآب القاسي القلب الذي لا يتحرك ولا يعطي شيئاً إلاَّ بعد توسل وتذلل نراه، حتى في اجتماعات الصلاة؛ حينما تتحول الصلاة إلى "مرافعة" محام ماهر يريد استمالة القاضي، ناسياً ذلك المحامي الفذ أن الآب هو ينبوع المحبة الذي أرسل ابنه بسبب محبته لكي يخلص العالم (يوحنا ٣: ١٦)!

لماذا يشفع الروح القدس فينا بأنَّاتٍ لا ينطق بها (رو ٨: ٨ – ٢٦)؟

لقد دمرت العظات التي تدور حول عبارة واحدة، أو "آية واحدة"، ليس فقط وحدة الكتاب المقدس نفسه، بل وحدة العقائد الكبرى، وفي مقدمتها الثالوث.

ولكي نفهم معنى كلمات الرسول عن شفاعة الروح القدس، علينا أن نعود إلى (رو ٨: ١٨) وما بعدها.

١- آلام الزمان الحاضر (١٨) حقيقة معاشة عبر كل العصور.

٢- لكن مع هذه المعاناة، فهي "لا تقاس بالمجد". ولاحظ عبارة الرسول: "العتيد (الآتي) أن يُستعلن فينا". فالمجد الآتي هو جزءٌ من انتظار الخليقة (١٩) التي تتوقع تمجيد أبناء الله، ومع تمجيد أبناء الله سوف يمتد المجد إلى الخليقة التي أُخضعت للبطل (٢٠) أي الفساد والانحلال دون أن يكون لها إرادة "ليس طوعاً"، وإنما لأن آدم الذي هو "صورة الله ومثاله" نال السلطان الإلهي لإخضاع الخليقة (مزمور ٨) وعندما سقط، انجرفت معه الخليقة التي خضعت له"[١].

٣- سقوط آدم كما ورد في (تكوين ص ٣) يؤكد الفوضى والفساد والصراع الذي دخل بين الرجل والمرأة، وبين آدم والخليقة.

٤- ولكن الفساد له زمان، وسوف يأتي الانعتاق أو الحرية، ولاحظ أن هذه الحرية حسب عبارة الرسول في (رو ٨: ٢١) هي "حرية مجد أولاد الله"، أي هؤلاء الذين لهم ذات مجد يسوع البكر بين إخوة كثيرين (رو ٨: ٢٩)، وهو ما طلبه الرب نفسه في صلاة رئيس الكهنة في (يوحنا ١٧: ١٠-٢٢)، فهو ممجد فينا، والرب أعطانا المجد الذي ناله من الآب؛ لأن قبول هذا المجد هو الذي سوف يؤهِّل المؤمنين لأن ينظروا مجد الابن الأزلي؛ لأن الرؤيا في الدهر الآتي هي شركة وليست (فُرجة).

٥- وماذا عن الزمان الحاضر المشحون بـ "مخاض" الولادة الجديدة، حيث تئن الخليقة ومعها يئن الإنسان نفسه (٢٢)، حتى الذين نالوا "باكورة" الروح القدس؟

ولاحظ هنا تعبير "باكورة"، فهو خاص بأول الثمار التي تظهر مبكراً[٢] قبل موعد الحصاد؛ لأن الحصاد هنا هو زمان الانعتاق، هو يوم "حرية الخليقة"، ولكن هذا

---

(١) راجع عظات ذهبي الفم على رومية ١٤: ٥ مجلد ٦٠ عامود ٥٣٠ ويقبل هذا الشرح *Lampe – Dunn – Fitzmyer* وكل المفسرين في العصر الحديث.

(٢) الباكورة وردت في الأصل اليوناني (١كو ١٥: ٢٠، ٢٣ – ١كو ١٦: ١٥ – ٢تسا ٢: ١٣ يعقوب ١: ١٨ – رؤ ١٤: ٤ وفي رومية ١١: ١٦، ١٦: ٢٥ απαρχη الثمر المبكر – First – Fruits).

التعبير يعني أن الروح القدس قد أعطى مبكراً في زمان التجديد حسب عبارة الرب يسوع المسيح نفسه: "الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد .." (متى ١٩: ٢٨). ولعل تعبير ἀπαρχη يُسكت الذين يفصلون بين الأقنوم والمواهب؛ لأن زمان التحرير أو الانعتاق من فساد الجسد وانحلال الخليقة هو الزمان الذي سوف يُستعلن فيه "الروح الذي أقام يسوع من الأموات" الساكن فينا وهو الذي "أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادنا المائتة "بروحه" الساكن فينا (رو ٨: ١١ مع الاعتذار لإعادة صياغة كلمات الرسول حتى يظهر المعنى). هنا العمل الالهي الأخير هو عمل الخالق، عمل الله، الذي سكن فينا نحن الباكورة لكي يتم كمال هذا العمل في يوم الحصاد، يوم القيامة على صورة قيامة يسوع المسيح نفسه من الأموات.

٦- نحن "نئن" في انتظار كمال التبني (٢٣) والتبني هنا ليس رتبة شرفية حسب ضلال البعض، وإنما هو كمال الخلق الجديد ليكون حسب صورة قيامة جسد يسوع الممجد (فيلبي ٣: ٢١).

٧- في (٢٤ — ٢٥) يقدم الرسول — رجاء — صبر — توقع الفداء للجسد. هذا في وسط معاناة وعواصف الدهر ومتاعب الزمان.

الأنين والشفاعة:

١- هو أنين الخليقة. ٢- هو أنين المؤمنين. ٣- هو أنين الروح القدس نفسه.

أنين الخليقة مع أنين المؤمنين هو أنين انتظار الانعتاق، ولكن الروح القدس غير مُستعبد للفساد ولا هو يعاني في أقنومه الانحلال والموت؛ لأنه "الروح القدس الرب المحيي"، ولكن الروح يئن بأناتٍ غير قابلة للترجمة حسب اللغة، أو هي فوق قدرة اللسان على التعبير. فالشفاعة هنا ليست توسلاً بالكلمات بل هي **آلام** مَن يرى ما هو حادث، وما سوف يكون من تعب، ومعاناة، واضطهاد، ومن ثمَّ المجد والحرية والكرامة

الإلهية، ولذلك يئن في صبر إلى أن يحين الانعتاق.

والرسول يقول: "لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله". كيف يصلي الشهيد؟ كيف يصلي طريح السجون من أجل الرب؟ كيف يصلي الراقد على فراش مرض مزمن؟ كيف يصلي المضطَهَد يومياً في مكان عمله؟، أو المطَارَد من الأمن والقضاء والزوجة، أو البريء الذي زُجَّ به في السجن، وبالإضافة إلى هؤلاء، البريء الذي مُنِعَ من التناول ظلماً؟ ... من أجل كل هؤلاء يئن الروح في **حزن**.

مع ملاحظة أن الرسول قد حذَّرنا من أن نحزن الروح "لا تحزنوا الروح"، فالروح يئن حزيناً لأننا نطفئ بمياه الخطية شعلة النار الإلهية: "لا تطفئوا الروح". وبالمناسبة، لو كان الذي فينا هو مواهب فقط، فكيف تئن المواهب؟ وكيف تحزن المواهب؟ وكيف تنطفئ المواهب؟ أليس الأنين، والحزن هما من ميزات حياة الشخص أو الأقنوم.

إذن، فما هي شفاعة الروح القدس (رو ٨: ٢٧)؟

يشفع فينا الروح القدس حسب مشيئة الله، وهو يشفع في القديسين؛ لأن مشيئة الله هي "قداستنا"، وتلك هي المرة الثانية التي يرد فيها الفعل في (رو ص ٨):

١- يصرخ فينا الروح القدس "أبَّا أيها الآب" (غل ٤: ٤)، وهي صرخة الفرح بعودة الخليقة إلى الله.

٢- قيادة الاستنارة؛ لأنه هو الذي ينير شركاء حياته، وحياة الروح القدس هي التقديس لنا والقداسة له (عب ٦: ٤)؛ لأن شركاء الروح القدس هم شركاءٌ في قداسته عب ١٢: ١٠.

٣- يتكلم فينا في زمان الشهادة بقوة لا يقدر حتى معاندي يسوع أن يقاوموها (متى ١٠: ٢٠ – لوقا ١١: ١٣ لأن الآب يهب الروح وهو يعطي حكمة لو ٢١).

٤- ويعطي الفرح في الضيق عندما يذكِّر ويُعلن للنفس المجد الآتي، حتى أن

اسطفانوس استنار عندما رأى مجد يسوع (أع ٧: ٥٥ مع أع ٦: ١٥).

٥- ويبقى الجانب الشخصي الذي يكتشفه كل مسيحي حسب احتياجاته وعمق شركته في الآلام الرب التي تقوده إلى مجد القيامة: "لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته لكي أبلغ إلى قيامة الأموات" (فيلبي ٣: ١٠). هذه صرخة رسول الرب الذي يجد في شفاعة الروح القوة التي تسند، لأن الروح الساكن فينا والعامل فينا ينطق أحياناً بكلمات الصلاة، أو رسالة نبوة، والأنبياء في تاريخ الكنيسة القبطية نطقوا بما هو فوق حدود الزمان: يوحنا الأسيوطي، وصموئيل المعترف، ومرقس المتوحد بجبل أنطونيوس ... وما أكثر هؤلاء الذين ارتفع صوتهم في زمان الأنين بالخلاص الآتي.

٦- ألا يئن الروح القدس في قلوب المعذَّبين بأنواع عذاب مختلفة ليقول: "يسوع هو الرب" (١ كو ١٢: ٣)؛ لأن الروح يسوق المعذَّبين للاعتراف بالإيمان – هكذا سمعنا عن الذي حدث في الزاوية الحمراء وغيرها حينما نطق أنين الروح القدس على ألسنة وأفواه شهداء عصرنا جهاراً .. وربما في صمت .. في لحظات الموت .. أنها ليست أنات التوسل .. ولكن النطق والاستعلان بما هو آت، أي بالمجد الذي لا نراه بالعين، والذي قد ينكره الواقع نفسه حيث الآلام، ولكن الروح يكشفه بعين النبوة؛ لأنه روح الرب الناطق في الأنبياء، إذ ينطق فينا في القلب في صمت أو جهراً بكلمات الحق؛ لكي ننال ذات الشركة مع سحابة الشهود (عب ١٢: ١)، ونسمع صوت الروح ينطق فينا بالشهادة: "يسوع هو الرب لمجد الله الآب" (فيلبي ٢: ٦-٧).

أمَّا المرة الثالثة التي يرد فيها هذا الفعل في الإصحاح الثامن، فهي: "من هو الذي يدين المسيح هو الذي مات، بل بالحري قام أيضاً الذي هو أيضاً عن يمين الآب يشفع فينا" (رو ٨: ٣٤)، فقد قيل الكثير عن شفاعة المسيح يسوع، ونسي القائلون إنه: ١- عن يمين الآب.

٢- إنه لن يدين؛ لأن الإدانة والشفاعة لا يعملان معاً.

أنَّات الروح القدس

رسالة ديونيسيوس أسقف الإسكندرية (٢٤٨م–٢٦٥م)

يشرح ديونيسيوس بابا الاسكندرية وتلميذ العلامة أوريجينوس أنَّات الروح القدس الذي يخلي ذاته لكي يسكن فينا:

"ما هو معنى كلمات الرسول: "الروح نفسه يعين ضعفنا، لأننا عندما لا نعرف كيف نصلي أو ماذا نصلي، الروح يشفع فينا بأنات لا يُنطق بها" (رو ٨: ٢٦ — ٢٧) لا يقبل الروح الكلي القداسة أن يسكن حيث توجد خطية، ولكنه هو نفسه الآن يحيا إلى الأبد في قلوبنا البشرية الخاطئة.

ما أعمق معاني كلمات الرسول بولس: "أنَّات لا ينطق بها". لقد قال الرسول نفسه في موضع معين: "لا تطفئوا الروح" (١ تس ٥: ١٩)، ونحن كثيراً ما نطفئ الروح عندما يصبح قلبنا بارداً، وهو ما حذَّرنا منه الرب يسوع المسيح، لأن القلب يبرد بالأثم (متى ٢٤: ١٢).

المحبة هي رباط، ولكن ذلك الرباط ليس للعبودية، بل هو رباط الروح الذي يطهِّرنا من الأنانية. فالروح الذي هو نار المحبة الالهية نحن لا نهتم به، وهو يصرخ فينا، نحن نسكب عليه مياه الخطية الباردة لكي نطفئ اللهب، وهو يعاني ويتألم من طردنا إياه، إلاَّ أنه لا يتركنا إلاَّ في يوم الدينونة. يشتاق الروح أن يعطي لنا كل الصلاح، إلاَّ أنه يرى أن قلوبنا باردة.

لقد أخلى الروح ذاته وتخلى عن قداسته لكي يغسل قذارتنا. هل رأى أحدٌ منَّا ملكاً عظيماً يخلع تاج ملكه وملابسه الملوكية لكي ينحني لكي يغسل قذارة شحاذ مغطى بالقذارة، ثم يضمد جراحه، ويُلبسه ملابس ملوكية، ثم يئن مشتاقاً لأن يعطي له التاج والملابس الملوكية.

حقاً يتواضع الروح أكثر من تواضع الابن عندما تجسد؛ لأن الابن أخذ نفساً وجسداً من مريم وجعلهما مقدَّسين بالاتحاد بالطبيعة الإلهية، ولكن عندما يعمل فينا الروح القدس، نحن الذين ليس لنا طبيعة مقدسة لكي يعمل فيها، بل مدنسة بالخطية فهو يخلي ذاته".

أنثولوجية قصيرة آبائية
على كلمات رومية ٨: ٢٠ وما بعده

-١-
انتظار الخليقة

القديس ايريناوس:

"الله الغني في كل شيء، وكل الكائنات ملك له، رأى أنه من المناسب أن الخليقة نفسها ستعود إلى ما كانت عليه من قبل، أي حالتها الأولى، وهي بدورها ستكون تحت سلطان القديسين" (ضد الهرطقات ٥: ١٠٣٢).

العلامة أوريجينوس:

"عندما يذكر الرسول بولس انتظار الخليقة، فهو يقول ذلك عن المجد الفائق والعظيم الذي سوف يناله هو والذين يعانون مثله الآلام" (شرح رومية ٤: ٤٨).

القديس كيرلس السكندري:

"تنتظر الخليقة استعلان أبناء الله وذلك في الزمان الآتي، ومَن الذي يعرف كيف سيحدث ذلك – أي انعتاق الخليقة؟ ولكن تدبير الله الفائق يرتِّب الصلاح لكل الكائنات ويدبِّر ما هو أفضل عندما تأتي نهاية الزمان ويتجدد الذين عاشوا حياة البر وتحولوا من المذلة والفساد إلى المجد وإلى عدم الفساد، فإن الخليقة نفسها سوف

تتجدد إلى ما هو أفضل" (شرح رسالة رومية مجلد ٧٤: ٨٢١).

– ٢ –

أُخضِعَت للبُطل Futility

العلامة أوريجينوس:

ما هو "البُطل" الذي أُخضعت اليه الخليقة. هذا يبدو لي خاصٌ بالجسد المادي المنظور، فهو مع غيره من الكائنات قد أُخضِعَ للبُطل" (شرح رسالة رومية ٤: ٥٠).

ذهبي الفم:

"يقصد الرسول أن الخليقة قد خضعت للفساد. كيف ولأي سبب؟ بسببك أنت أيها الإنسان، لأن جسدك خضع للموت وصار مائتاً وخضع للألم، ومع الإنسان أخذت الأرض اللعنة وأنتجت حسكاً وشوكاً (تك ٣: ١٨) ..

هكذا عانت الخليقة البُطل، ولكنه ليس بُطلاً غير قابل للتجديد، لأن الخليقة سوف تنال عدم الفساد مرةً ثانيةً لأجلنا نحن البشر. وهذا ما يقصده الرسول بقوله: "أُخضعت على رجاء" (عظات على رومية ١٤: ٨).

القديس كيرلس السكندري:

"لا تعرف الخليقة المنظورة المحسوسة أي شيء عن الوعد الذي أُعطى لنا لأنها لا تفهم، ولكن إذا كان من استطاعة الخليقة أن تفهم ما حدث، فإنها كانت بكل تأكيد لا تقبل الاستعباد الذي خضعت له أو أن تحفظ حتى علاقة حميمة مع الذين لا ثمار صالحة لديهم. ولكن بولس يقول إن الخليقة "أُخضِعَت على رجاء"؛ لأن القديسين المختارين سوف ينالون الخلاص، وعند ذلك سوف يرفع الله النير الذي وُضِعَ على عنق الخليقة .. لكن الآن الخليقة تئن وهي على نحو ما تتمخض وتحزن،

ولو كان لدى الخليقة أي وعي بما يحدث لنا لصرخت معنا صراخاً عالياً" (شرح رسالة رومية مجلد ٧٤: ٨٢١).

-٣-

تحرُّر الخليقة

القديس جيروم:

"عندما ينال أولاد الله المجد، سوف تتحرر الخليقة من العبودية" (عظة على مزمور ٥٨ – ٤٨: ٤١٨).

-٤-

أنين وشفاعة الروح القدس

العلامة أوريجينوس:

"أحياناً لا يعرف الانسان المريض كيف يسأل الطبيب، فلا يطلب الدواء الذي يعطي له الشفاء، بل قد يسأل شيئاً يزيد من أوجاع المرض.

هكذا نحن، عندما نذوق مرارة الحياة وضعفها قد نسأل الله ونطلب أشياءً غير نافعة، لكن الروح يعين حياتنا الجسدانية، وعندما يرى الروح أن أرواحنا تصارع مع أهواء الجسد التي تثقلنا، عند ذلك يمد الروح القدس يده لكي يعين ضعفنا" (شرح رسالة رومية ٤: ١٣٦).

ذهبي الفم:

"الروح معنا دائماً لكي يعين ضعفنا، ولكن لأننا نجهل ما هو نافع لنا نطلب أحياناً ما هو غير نافع لنا، ولكن عطية الصلاة قد ينالها شخص معين في الكنيسة اختاره الله لكي يطلب ما هو نافع. وعندما يستخدم الرسول كلمة "الروح"، فهو الاسم الذي يعطيه الرسول لهذه العطية التي توهب للنفس التي تعطى هذه النعمة لكي تتشفع عن (الكنيسة) لدى الله. ومَن يُحسب أهلاً لهذه النعمة عليه الانتباه الشديد؛ لأنه هو نفسه سيدخل الأنين الروحي عندما يقف أمام الله سائلاً ما هو نافع للكل. في أيامنا الشماس هو رمزٌ لهذه الخدمة؛ لأنه يقدم صلاةً عن الشعب" (عظات على رومية ١٤: ٩).

أوغسطينوس:

"من الواضح أن الرسول يتكلم عن الروح القدس؛ لأننا نحن لا نعرف كيف نصلي لسببين. السبب الأول هو أننا لا نعرف بشكل واضح ما هو المستقبل الذي نرجوه وما هي الأحداث التي سوف تحدث لنا في المستقبل. والسبب الثاني هو ما أكثر الأشياء التي نراها مناسبة وجيدة في هذه الحياة وأخرى نراها عكس ذلك، وعلى سبيل المثال عندما تحدث ضائقة لأحد خدام الله لكي يتعلم منها شيئاً، فإن هذه الضائقة قد تبدو للآخرين كما لو كانت بلا فائدة، بل باطلة، لأننا لا نعرف طرق الله. ولكن الله يساعدنا في الضيقات، بل أن الأيام التي نرى فيها عذوبة الحياة قد تصبح هي ذاتها مصيدة لنا؛ لأنها تصطاد النفس بالمسرات وبمحبة الحياة أكثر من الله ... هنا يئن الروح ويجعلنا نحن أنفسنا نئن مشتاقين لمحبة الروح نفسه للزمان الآتي" (شرح أوغسطينوس لرومية ناقص نشره مركز دراسات الكتاب والآباء في الولايات المتحدة، فقرة ٥٤: ٢٧).

القسم الثاني

مختارات من عظات الآباء
في أعياد القديسين والشهداء

الفصل الأول

نسيان التاريخ

لقد نسينا التاريخ، وعبارة نجيب محفوظ تكاد تكون مثل شمعة في طريق مظلم: "آفة حارتنا النسيان". وآفة النسيان تضرب الكثير: تاريخ العقيدة – التعليم الأرثوذكسي نفسه – القانون الكنسي – وثائق الكنيسة.

كانت بعض الكنائس تُبنى في أماكن استشهاد الشهداء حيث سقطوا، أو حيث نُقلت أجسادهم. وكان لها اسم غاب من مصادرنا العربية *Martyriam* ، أي مزارات، لا زال موجوداً في ترتيب تقديس الكنيسة حسب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. لا زال باقياً من هذه *Martyria* القديس الشهيد ديمتري في تسالونيكي – اليونان، وبناها الامبراطور قسطنطين. في قيصرية كبادوكية كانت كنائس قد بنيت للشهداء *Mamas* ماماس و*Gordius* وجوريوس وكما سنرى، أشار إلى هذه الكنائس باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي –كما أشار استريوس *Asterius* الحمصي في عظة سوف نقدمها في مدح الشهداء إلى مزارات الشهداء خارج مدينة حمص – سوريا. وخارج المدينة، ربما لأن المقابر كانت دائماً خارج المدن. وفي انطاكية كانت هناك كنيسة على اسم الشهيدة *Babylas* وكنيسة على اسم الأسقف يوليانوس الشهيد اسقف كيلكية.

ومن رسالة القديس غريغوريوس النزينزي (رسالة ١٢٢) نعرف أن عيد الشهيد ايفاميوس كان يقام في قرية ارينزا *Arianza* وسافر غريغوريوس النيسي على ظهر حصان في مناطق جبلية لكي يقابل صديقه هيلاديوس القيصري الذي كان يحصر احتفال شهيد في قرية نائية انديمون (الرسالة الأولى) نشر النص اليوناني *Maraval* عامود ١٩٩٥، ومن مصادر كثيرة حجبتها عنا عدم اتقان اللغات القديمة وعدم التخصص في التاريخ، لا

سيما مجموعة سير القديسين اليونانية *Bibliotheca Hagiographica Graeca*.

ومن عظة للقديس يوحنا ذهبي الفم حقق النص *Pasquato* في ١٩٩٨ ومن صفحة ٢٠٧ نعرف أن عدة مزارات لعدة شهداء كانت مشيَّدة خارج سور مدينة انطاكية. ويقول ذهبي الفم للذين كانوا يحضرون العيد إذا لم يكن لديكم واعظ جيد، فإن صوت الشهداء العذب هو الصوت الذي يجب أن نسمعه؛ لأن الله يعوض هؤلاء عن فقر المعلمين. بل في نفس العظة نعرف أن أعياد الشهداء خارج مدينة انطاكية كانت أكثر من تلك في داخل المدينة.

وفي داخل كنيسة الشهيد *Babylas* حيث وعظ ذهبي الفم عظته المعروفة عن هذا الشهيد كانت مقبرة الشهيد داخل *Martyrium* وتحولت إلى كنيسة بُنيت على شكل صليب استطاع الأثري *Grabar* القيام بحفريات فيها وحولها لتحديد شكل الكنيسة التي دُمِّرت. وبُنيت كنيسة على شكل صليب في مدينة *Nyssa* ذكرها القديس غريغوريوس النيسي في (رسالة ٢٥ – المرجع السابق).

ومن تاريخ شهداء سبسطية الـ ٤٠ (في أرمينيا)، ورغم أنهم طلبوا في الوصية الخاصة بهم أن يُدفَنوا معاً إلَّا أن أجزاء كثيرة من أجساد هؤلاء الشهداء وُزِّعت على كل أرجاء الامبراطورية. راجع:

Musurillo, Testament the 40 Martyrs of Sebaste 1970, 354-357.

ومن رسائل القديس باسيليوس ١٥٥ و١٦٤ و١٦٥ نعرف أنه طلب وساطة أسقف *Tomi* لكي يحصل على أجزاء من جسد الشهيد سابا *Sabas*.

وكانت زيارات أماكن دفن الشهداء في هذه المزارات *Martyriam* تتم في أيام الأعياد حتى الأعياد السيدية لأن ذهبي الفم في عظة على عيد الصعود يقول للشعب:

"مهما كان حجم ونوع المشاغل اليومية والاهتمامات التي تبسط سحابة سوداء قاتمة

على عقولكم. اتركوا منازلكم واذهبوا خارج المدينة وقولوا "مع السلامة" لكل ما يضايقكم واذهبوا إلى المارتيريوم حيث الهواء النقي المنعش واتركوا كل اهتماماتكم وتمتعوا بالسلام والسكينة وكونوا في شركة القديسين واسكبوا طلباتكم ،وعندما تتركون أحمالكم الثقيلة وتبعدوها عن وجدانكم، فأنتم سوف تعودون إلى منازلكم بتعزية عظيمة" (مجلد ٥: ٤٤٣).

وفي داخل هذه الكنائس كانت سير الشهداء تُتلى، وكان طلب شفاعتهم، كما سنرى في العظات لكل من باسيليوس عن الـ ٤٠ شهيداً، فقرة ٨ – غريغوريوس النزينزي عن كبريانوس، فقرة ١٩ — غريغوريوس النيسي عن ثيودور، فقرة ٣ – واستريوس الحمصي عن الشهداء القديسين، فقرة ٤.

بل كانت الحروب المحلية والصراع الدامي بين الفرس والامبراطورية الرومانية في منطقة آسيا الصغرى المتاخمة لبلاد فارس، تجعل الشعب يجتمع في كنائس الشهداء لطلب معونة هؤلاء الشهداء وصلواتهم (عظة القديس باسيليوس عن ٤٠ شهيداً فقرة ٨ — القديس غريغوريوس النيسي يحث الكنيسة في *Euchaita* على طلب شفاعة ثيودور. وأصبح الشهيد فوكاس *Phocas* هو شفيع مدينة *Sinope* في بلاد البنطس، بل يؤكد استريوس أنه تحول إلى مدافع عن البحارة، بل ظهر الشهيد نفسه لكي يشجع البحار الذي كان يمسك بدفة السفينة في عاصفة وتحول غناء البحار إلى مديح للشهيد (عظة فقرة ١).

وبسبب الحلول الأبدي للروح القدس في المسيحي، وليس الشهيد وحده، يقول غريغوريوس النزينزي: إن أجساد الشهداء لها نفس قوة نفوس الشهداء لكل من يلمسها، بل أيضاً القبر نفسه. وكان قناديل الزيت تُوضع على أماكن الدفن. ويطلب ذهبي الفم من الزوار أن يأخذوا من الزيت لكي يدهنوا به أجسادهم (عظة على الشهداء مجلد ٥٠: ٦٦٤). وفي عظة على القديس يوليانوس يقول ذهبي الفم:

"إن بقايا الأسقف الشهيد، أي جسده كانت تشفي الحمى وتعضد الضعفاء لكي

ينالوا التحرر من الخطية وفي محاربة الشر وشفاء الأمراض النفسية والجسدية؛ لأن هؤلاء طلباتهم لا يمنعها شيء عند الله" (مجلد ٥: ٦٧٣).

بل يذكر القديس غريغوريوس النزينزي كيف تطرد أجساد الشهداء الشياطين وتشفي المرضى (ضد الإمبراطور يوليانوس الجاحد فقرة ١ — Bernadi طبعة ١٩٨٣ ص ١٧٨).

الاحتفالات السنوية أو التذكارات:

كان الحجاج يقصدون هذه الأماكن للشفاء وطلب المعونة يومياً، وكانت أجساد الشهداء تقدم للزوار (لا نعرف سوى بعض الصناديق) عند طلب صلوات الشهداء، وكانت سهرانية تمتد طول الليل وتنتهي بقداس وبدورة تُحمل فيها أجساد الشهداء حسب دراسة كل من *P. Marval* و *M. Wacht* ويبدو أن الصلوات كانت تبدأ بالعشية وتسهر حتى الفجر حيث تضاء قناديل الزيت والشموع، وكان لسفر المزامير دور كبير (بحري — قبلي) ومع ازدحام المكان كان يلحق بكل مزار أماكن للصلاة الفردية الهادئة. وكانت هناك عظة أثناء القداس حسب دراسة الأثري *L. Leemans* وإقامة القداس الإلهي في يوم العيد أشار إليها القديس باسيليوس في العظة على مزمور ١١٤ (مجلد ٢٩: ٤٨٤) وأيضاً القديس غريغوريوس النيسي في حياة مكرينا (٣٣). والعظات التي وصلتنا، وسوف تُنشر هي أصلاً عظات أُلقيت في قداسات[١].

([1]) Schoolrooms for our souls, 2000, 253-257.

الفصل الثاني

الشهيد جورديوس Gordius

مقدمة موجزة:

ولد باسيليوس في عام ٣٣٠ ونال المعمودية وهو في سن ٣٣ أي في عام ٣٥٧ درس في بنطس حيث ولد. وبعدها في قيصرية انطاكية، ثم أثينا، تعرف في أثينا على غريغوريوس النزينزي. زار أديرة مصر بعد معموديته. اشترك في مجمع القسطنطينية عام ٣٦٠ مع أسقفه يوستاسيوس أسقف سبسطية، وكان مجمعاً محلياً عُقِد لمناصرة حزب الوسط بين الأريوسية والأرثوذكسية *Semi-Arian* ولكن باسيليوس أدرك خطورة تعليم الطريق الوسط الذي تبناه ايضاً يونوميوس *Eunomius* صاحب فكرة حلول القوة والطاقة الإلهية؛ لأن الابن والروح ليسا أقانيم، بل قوة ونعمة من الله. عاد باسيليوس إلى الإيمان الأرثوذكسي النيقاوي قبل أن يُقام أسقفاً على قيصرية، وكتب كتابه المشهور دفاع عن الروح القدس[١] وانتقل إلى عالم النور في ١ يناير ٣٧٩.

الشهيد جورديوس كان قائد مئة في الجيش الروماني، واستشهد في اضطهاد ليسنيوس *Licinius* (٢٦٣-٣٢٥). سُجِّل خبر استشهاده باليونانية والأرمنية، وله عيد في ٣ يناير حسب ترتيب الكنيسة اليونانية حسب دراسة *F. Halkin* نُشر النص في *Analecta Bollandiana* ٧٩ ص ٥-١٥).

وقد ألقى القديس باسيليوس عظة في عيد الشهيد جورديوس في قيصرية سنة

---

(١) قمنا بترجمة الكتاب ونشرناه في القاهرة في طبعته الأولى ١٩٨١ مع مقدمة للمتنيح الأنبا يوأنس أيقف الغربية، ونُشرت الطبعة الثانية في القاهرة ٢٠١٤، والكتاب منشور على موقع الدراسات القبطية واللاهوتية.

٣٧٣ (مجموعة الآباء اليونانيين مجلد ٣١ عامود ٤٨٩-٥٠٨)، نقدم منها هذه المقتطفات:

"التعليم الإلهي لا يقوم على قانون، بل على شهادة تكشف أعماق التدبير، كافية كأساس لنا لأن نمدح القديسين؛ لأن هذا يكفي الذين يجاهدون من أجل حياة حقيقية. التدبير له قواعد، وهي تقدم شيء عن الوطن والأسرة والنشأة، وأن نقدم خطاباً عن التعليم، ولكن اليوم التدبير الخاص باليوم هو أن نلزم الصمت عن كل هذه الأمور وعن البشر الذين لهم علاقة (بالشهيد)، وأن نقدم شهادة لكل من كان يعرفه عن أعماله .. لقد أشرق اليوم الذي يحمل إلينا ذكرى الشهيد الذي صارع لكي يشهد للمسيح، وعلينا أن نقول ما نعرفه عنه.

لقد وُلِدَ في هذه المدينة (قيصرية)، ولهذا نحن نحبه كثيراً؛ لأنه هو زينة مدينتنا، وأنا أعني أنه كما أن كل شجرة مثمرة تقدم ثمارها للأرض التي تنمو عليها هذه الشجرة، هكذا كان جورديوس الذي خرج من رحم المدينة ليصعد إلى أعلى مجد وشهرة .. بعد أن تطوع في الجيش ونال مركزاً رفيعاً وأُسندت إليه القيادة بسبب كفاءته ليقود ١٠٠ جندي؛ لأنه كان مشهوراً بين قيادات الجيش بقوته الجسدية وشجاعة روحه. ولما كان ذلك في زمان الطاغية (الامبراطور ليسنيوس Licinius) الذي امتدت وحشيته وقسوته ومرارة روحه لكي يحارب الكنيسة ورفع يده لكي يحارب أتقياء الله، كان هناك نداء عام امبراطوري ومنشورات edicts في كل مكان في الأسواق والأماكن العامة بحظر عبادة المسيح وعقوبة العصيان هي الموت. وكان هناك أمر عام لكل أحد بالانحناء والسجود للأصنام وأن تُحسب الأحجار والأخشاب التي صنعها الفنانون آلهة، بل أن كل من يخالف سوف يُعاقَب بعذاب لا يحتمل.

بسبب ذلك دبت الفوضى في المدينة كلها، وامتد النهب إلى بيوت الأتقياء من الناس. وتم الاستيلاء على الأموال، ومُزِّقت أجساد الذين يحبون المسيح إلى قطع بالضرب المبرِّح وسُحِلت النساء إلى وسط المدينة، ولم تبقَ شفقة على الشباب، ولا

احترام للشيوخ الطاعنين في السن .. بسبب هذا الجنون الذي اخترعه وقدَّمه الشيطان لم يعد أحد يهتم بالآخر، ونزلت ليلة من الرعب على الحياة الإنسانية. ودمرت الأيادي النجسة بيت الصلاة وقلبوا المذابح وانعدمت التقدمة، ولم يعد البخور يقدَّم ولا حتى مكان للذبيحة[١].

والذين يخدمون الله طُرِدوا، وكل جماعة مقدسة خافت، بينما رقصت الشياطين للنصر، ونجَّست دهون الأجسام المحترقة والدم المسفوك كل شيء. عند ذلك لم يخضع وينحنِ هذا الرجل النبيل لقرارات المحاكم، بل تخلى عن قيادته لأنه أنكر سلطان (الامبراطور والسلطة الحاكمة) محتقراً مجدهم وكل ثراءهم، والأسرة والأصدقاء، بل ومسرة الحياة نفسها كل مشتهياتها .. واعتبر أن الحياة مع الوحوش أفضل من الحياة والخلطة بالبشر عابدي الأوثان مثل غيرة إيليا الذي لما رأى انتشار عبادة الأوثان في صيدا هرب إلى جبل حوريب وعاش في مغارة ساعياً إلى الله (١ ملوك ١٩: ١-١٨)...

هكذا كان جورديوس مثل إيليا .. طهَّر أُذنيه وطهَّر عينيه، وقبل أي شيء آخر، طهَّر قلبه، فصار قادراً على أن يرى الله، وتقدس فرأى رؤى وتعلَّم الأسرار، ليس من إنسان، ولا بوسيلة إنسانية، بل بواسطة روح الحق الذي صار له المعلم العظيم .. وعندما اجتمع الناس جميعاً في مكان مرتفع في المدينة، لم يغب أحد ولا حتى يهودي واحد أو أممي، وكان في الجمع عددٌ من المسيحيين اختلط بهم وتحرك الكل نحو الاستاد كما لو كان الكل ذاهباً لمشاهدة سباق خيل .. أما جورديوس فكان مثل السيد (المسيح) الذي لم يتعرف عليه اليهود في ظلام الليل (في بستان جثيماني) وعرفهم بنفسه ..".

وبعد أن يصف القديس باسيليوس استشهاد جورديوس والعذاب الذي تحمَّله يقول:

---

(١) يعد هذا السطر الواحد شهادة على المذبح – البخور – ذبيحة الإفخارستيا.

"الذين نصحوه بأن ينكر بلسانه فقط الإيمان وليس بقلبه، ولكنه أجابهم الذي خلق اللسان هو المسيح ولساني لا يقوى أن يقول شيئاً ما ضد خالقه؛ لأن القلب يؤمن به لما هو حق واللسان يعترف به للخلاص (راجع رومية ١٠: ١٠)، وأضاف الشهيد بعد ذلك "كيف أنكر الله الذي أخدمه منذ طفولتي؟ إن السماء من فوق سوف ترتعد والأفلاك سوف تظلم بسببي، بل سوف تلفظني الأرض تماماً؟ "لا تضلوا إن الله لا يُحتقَر" (راجع غلاطية ٦: ٧). وبعد أن رشم نفسه بعلامة الصليب ذهب لكي يقتل ... وبعد ذلك يقول "وكما أننا نعجب دائماً بالشمس، كذلك نحفظ على الدوام ذكرى ذلك الإنسان لأن ذكرى الصديق دائمة" (مزمور ١١١: ٦). هنا يتذكرها الذين على الأرض طالما الأرض بقيت كائنة، وفي السماء عند الديان العادل الذي له المجد والقوة من الآن والى الأبد" آمين.

الفصل الثالث

مختارات ومقتطفات
من عظة القديس غريغوريوس النيسي
عن استشهاد ثيؤدور الجندي، وشهداء سبسطية

الشهيد ثيؤدور الجندي

كانت له كنيسة، بل دير ظلَّ عامراً حتى القرن السادس في شمال غرب (تركيا)، وله عدة مزارات في القدس وروما والقسطنطينية. تُعد عظة القديس غريغوريوس النيسي هي أقدم ما وصلنا وقد أُلقيت في قرية الشهيد *Euchita* في سنة ٣٧٠ أو ربما ٣٧٩ (مجموعة مؤلفات القديس غريغوريوس النيسي *Gregorii Nysseni Opera* ١٠: ١-٢ ص ٦١-٧١).

من الافتتاحية:

"يا شعب المسيح القطيع المقدس الكهنوت الملوكي (١ بط ٢: ٩) الساكنين في كل مدينة وقرية، لقد تدفقتم من كل مكان دون أن تبالوا بمشقات السفر لكي تأتوا إلى هذا المكان المقدس.

أنتم يا خدام الخدمة النقية (مع ١: ٢٧) وأصدقاء الشهيد، انتبهوا إلى ما سأقوله عن عظم وتعدد البركات التي سوف تنالونها، وأنا أعني الآن في هذا العالم حيث نحيا، أما ما يحدث في العالم غير المنظور فهو فوق الحصر .. ضعوا في قلوبكم الجائزة التي

سوف يوزعها المسيح على المجاهدين".

وبعد أن وصف جمال الكنيسة يقول عن مكان دفن الشهيد في الكنيسة:

"الإعجاب برؤية هذا العمل الفني يلهمنا أن نتقدم إلى الباقي، أي القبر لأن لمسه يقدسنا ويباركنا، بل البعض يطلب الأذن بأن يأخذ الغبار الذي نزل على مكان راحته (القبر) بل حتى التراب يحمله البعض كهبة لأنه كنز، ولمس العظام نفسها عندما تسمح المناسبة هي أعظم ما يتمناه كهبة من شهيد الله العلي؛ لأن الذين يفعلون هذا لهم تذوق وشوق خاص يريدون أن يحققوه؛ لأنهم يفعلون هذا كما لو كان مع جسد حي، وبعيونهم يأخذونه بالأحضان وبالفم والدموع أيضاً. وعندما يلمسوه بكل حواسهم تسيل الدموع من عيونهم. ويخاطبون الشهيد ويقدمون توسلاتهم لكي يتشفع عنهم كما لو كانوا يسألون من يحرس الله كجندي، ويسألونه لكي يقدم طلباتهم لله كما لو كانت تقدمات يطلبون منه أن يقبلها ويقدمها لله. من كل هذا أيها الشعب التقي عليكم أن تتعلموا أنه "عزيز في عيني الرب موت قديسيه" (مزمور ١١٥: ٦) كل إنسان لديه نفس الجسد الذي كوِّن من نفس الخصائص. ومن مات موتاً طبيعياً يدفن عادةً. أما جسد الذي نال نعمة آلام الاستشهاد فهو محبوب ومُكرم ويعامَل كما سبق وقلت (الفقرة السابقة التي تُرجمت)، لذلك نحن نرى ونؤمن بما هو آت ... الذين قادوا الجيوش من القادة العسكريين الذين دمروا أسوار المدن واستعبدوا شعوباً لا تحصى، أين هؤلاء من هذا الجندي الإنسان الفقير المجند الذي تسلح بالأسلحة من بولس (أفسس ٦: ١١-١٣) ومسح حلبة الصراع التي يقودها الملائكة وبعد النصر سوف يكلل بالمسيح (راجع ٢ تيمو ٤: ٨)".

شهداء سبسطية الـ ٤٠:

قدم القديس غريغوريوس لنا عظتين عن هؤلاء الشهداء الذين ماتوا في بحيرة تحولت إلى ثلج بعد أن أُمروا بالنزول إليه لأنهم رفضوا إنكار الرب يسوع المسيح في أرمينيا

وهم جميعاً كانوا من فرقة رومانية واحدة من مدينة سبسطية، ونقل الآباء خبر استشهادهم في العظة السابقة للقديس باسيليوس، وانتشر خبر استشهادهم حتى إيطاليا نفسها، ودُوِّنت التراتيل باليونانية والقبطية والسريانية واللاتينية والأرمينية، ومعها عظات عن خبر استشهادهم، وتعد وثائق القرن الرابع هي المدونات الكاملة التي لدينا، وهي: عظة القديس باسيليوس – عظتين للقديس غريغوريوس النيسي – عظة لمار إفرام باليونانية، ويعتقد بعض علماء الآباء أن العظتين هما أصلاً عظة واحدة قُسِّمَت إلى قسمين (ربما هذا صحيح) وحسب تقويم كنائس آسيا الصغرى، يقع عيد الاستشهاد في ٩ مارس.

العظة الثانية (مجموعة كتابات القديس غريغوريوس – الأصل اليوناني ١٠: ١-٢ ص ١٤٥-١٥٦). الافتتاحية هامة جداً لأنها اجتماع الليتورجية:

"بالأمس دعاكم أيها الشعب لزيارتهم، أما الآن وحسب دعوتهم، فهم ضيوف عندنا ينالون كرامة في فندق الكنيسة. وحسب الضيافة تقدم الولائم على شرف الضيوف وهم بدورهم يوزِّعون ما في الولائم على غيرهم عندما تقدم لهم هم أولاً. ولذلك علينا الآن أن نقدم للشهداء نفس الوليمة التي قدموها لنا كبديل لما قدموه لنا في عيدهم ...

كرامة الشهداء:

ما أجمل هذا المنظر عند كل من يشاهده. جميل عند كل من يطلب الجمال. جميل عند الملائكة وجميل عند القوات العلوية، وبغيض عند الشياطين وعابدي الشياطين.

لم يكن هؤلاء مجرد بشر عاديين، بل بشر عاشوا إلى عظمة شخصياتهم. هم جنود المسيح. مشاة الروح القدس. أبطال الايمان، أبراج إلهية للمدن .. بشر قهروا الجسد بالجسد، واحتقروا تهديد الطاغية لأنهم احتقروا الموت، وهم بذلك ارتفعوا فوق

المستوى الطبيعي للبشر .. وكان رد فعلهم على كل تهديد هو كلمة واحدة: "المسيح" .. والاعتراف بالمسيح في يد جندي صالح هو مقلاع يضرب العدو فيسقط على الأرض مقطوع الرأس (إشارة إلى داود وجليات).

صراع الشهداء هو كمال صراع الكنيسة مع الشر:

"عندما اعترف هؤلاء بالمسيح جهراً كانت القوات السمائية تصفق وتسبح، وكان مواطني المدينة السماوية بفرح يقبلون هذا الاعتراف وكان فرح في السماء، فرح كامل وعيد. وحقاً ما أجمل المنظر الذي عاينه الملائكة في هذا الدهر الذي يحياه البشر. كان حلبة صراع بين الشيطان وبشر وكنا نحن جمهور المشاهدين.

ما أعظم الفرق بين الجولة الأولى بالمقارنة بهذه الجولة عندما خدعت الحية آدم (تك ٣). في هذه الجولة الأولى لم يقوَ الإنسان على منازلة العدو الشرير عندما قدم له قطعة ليأكلها وكانت مغرية. أما في هذه الجولة، فإن كل حيل الشيطان العدو بائت بالفشل وبلا نتيجة. الشيطان نصب شباك رجاؤه وهم داسوا عليها. هددوهم بما هو مخيف وهم سخروا منه. كان فيهم خوف واحد، أن ينفصلوا عن المسيح وهو صلاحهم الوحيد، ورجاءهم هو أن يكونوا مع المسيح فقط، وكل ما حدث حولهم هو فترة مؤقتة للضحك، هي مجرد ظلال، مثل أي كلام عاطل وأحلام يقظة خائبة...

التحول من السقوط إلى المجد:

"أما قائد الصراع، فقد جهَّز أكاليل النصر. قائد القوة الإلهية أعد المكافأة للفائزين واستقبلهم الروح القدس بكل هبة. ولأنهم اعترفوا بالإيمان بالثالوث قدم الثالوث لهم نعمة لا تقارن بما قدموه هم.

ما هي هذه النعمة؟ لقد مجدهم لأنهم صاروا أعظم من الذي سقط في الجولة الأولى

أي آدم وحواء. لقد جلب كلاهما الخطية على الطبيعة الإنسانية، أما الشهداء فقد أقاموا ما سقط بسبب السقوط. آدم وحواء طُردا من الفردوس إلى حياة أرضية، أما الشهداء فقد حولوا مكان سكناهم إلى فردوس. آدم وحواء تسلحوا بالموت ضد كيانهما لأن الكتاب يقول الخطية هي سلاح الموت (شوكة) (١كو ١٥: ٥٦)، أما الشهداء فقد حولوا الموت الذي تسلح بالخطية بلا فاعلية بسبب شجاعتهم؛ لأنهم عندما احتملوا العذاب كسروا حدة السلاح والشوكة طبقاً لأجمل ما قيل "يا موت أين شوكتك يا هاوية أين هي نصرتك" (١كو ١٥: ٥٥).

أجمل خاتمة لعظة:

"العظة تصل إلى خاتمتها أو أفضِّل أن أقول إلى خاتمة أعمال الشهداء. هذه هي المناسبة لأن أيام صراعهم بمثابة مقدمة لعيد القيامة سر الأربعين يوماً المقدسة. أربعون يوماً هي أيام تحريرنا وأربعون هي عود أكاليل الشهداء".

الفصل الرابع

عظة القديس باسيليوس

عن شهداء سبسطية

سجَّل القديس باسيليوس قصة استشهاد هؤلاء الأربعين شهيداً بسبسطية[١]، بأرمينيا، فقد رفض هؤلاء الشهداء -وهم أصلاً من الجنود في عهد الإمبراطور ليسينيوس- أن يقدموا الذبائح للأوثان، وجاء قرار موتهم عكس التشريعات الرومانية التي كانت تقضي بإعدامهم بحد السيف، فتم قتلهم بواسطة التعذيب بإلقائهم في بحيرة من الجليد.

يقول القديس باسيليوس:

"من يحب الشهداء لا يصيبه الملل من ذكرى الشهداء ... لأن إكرام الصالحين من عبيد الله، هو برهانٌ على محبتنا لسيد الكل. ومن يمدح العظماء يبرهن على أنه لن يتأخر عن الاقتداء بالعظماء إذا سنحت الفرصة. امدح الشهيد بكل إخلاص لكي تنمو محبة الاستشهاد في قلبك، وتنال دون أن تذوق الاضطهاد أو حرق النار أو ضرب السياط نفس المجازاة التي فاز بها الشهداء.

إن الذين نتحدث عنهم اليوم بفخرٍ، ليس واحداً ولا اثنين ولا حتى عشرة من القديسين، بل أربعون كانت لهم نفسٌ واحدة وأجسام متعددة. ولكن هذه النفس

---

(١) استشهد الأربعون شهيداً في شهر مارس سنة ٣٢٠ وتعيد لهم كنيسة الروح الأرثوذكس في ٩ مارس، أما السنكسار القبطي فيذكرهم في ١٣ برمهات الموافق ٢٢ مارس. وقد سبق لنا أن قمنا بترجمة هذه العظة، ونشرها بيت التكريس لخدمة الكرازة في سلسلة كتابات الآباء في سبتمبر ١٩٨١.

الواحدة جعلت لهم إرادة واحدة والإيمان الواحد، حتى أنهم أبدوا ثباتاً واحداً تجاه الخطر. والشجاعة الواحدة للدفاع عن الحق. كانوا واحداً في الرأي، في الجهاد، ولهذا نالوا أكاليل المجد الواحد. فأيُ لسانٍ يمكنه أن يخبر بمكانتهم، لا لسان واحد ولا حتى أربعون لسان تستطيع أن تمدح شجاعة هؤلاء الأبطال. لو كان بطلاً واحداً لشعرنا بالعجز عن التعبير عن كفاحه، فكيف ونحن أمام أربعين بطلاً؟ جيشٌ كبير ظافرٌ لا يمكن أن يُغلب في ساحة النضال، ويفوق قدرتنا على الثناء.

لنتذكرهم الآن لكي ينال الحاضرون معنا بركات تذكارات الشهداء. ويا ليتنا نستطيع أن نرسم بدقة صورة هؤلاء الرجال ابطال. إن الخطباء والرسامين، إذا أرادوا أن يعبِّروا عن شجاعة الأبطال، أخذ الخطباء يزينون خطبهم بالعبارات البليغة، والرسامون في تهيئة الرخام للنحت؛ لكي يؤثروا في السامعين والناظرين ويشحذوا همتهم لطلب الشجاعة. وما يخبر به الخطيب بالكلام، يعلنه الرسام بالخطوط الصامتة. فلنخبر نحن إذن بشجاعة هؤلاء حتى لتبدوا أمام عيوننا صورةً حيَّةً لكي يزداد الشجعان شجاعةً ويتشبه بهم الذين يريدون نفس المجد. فغاية مديح الشهداء هي أن يقبل المؤمنون المجتمعون في الكنيسة على التمثل بالشهداء.

إن مديح الشهداء القديسين لا يخضع لعادات المديح العالمية لأن الذين ينظمون مديحاً، إنما يعتمدون على مصادر دنيوية. أما هؤلاء الذين قد صُلِبَ العالم لهم، كيف يمكن أن نستخدم الوسائل الدنيوية لكي نمدحهم؟ لم يكن لهؤلاء الشهداء وطن واحد، بل كلٌّ نشأ في بلدٍ مختلف. فماذا نقول، هل هم بلا وطن أم أن وطنهم هو العالم كله. وكما أن الذين يعيشون في شركة يقدمون كل ما لديهم فيشترك الكل فيه لأن الشركة تعني اشتراك الكل، هكذا أشركنا كل واحدٍ منهم في وطنه؛ لأن الجميع اشتركوا في وطنٍ واحد. ولكن لماذا نسأل عن الوطن الأرضي، ولا نفكر في مدينتهم الحالية، مدينة الشهداء، المدينة التي صانعها ومبدعها هو الله، أورشليم السمائية، الحرة، التي ولدت كثيرين وصارت الأم لبولس الرسول.

هم جسدياً لهم أسماء مختلفة، أما روحياً، فلهم أبٌ واحد هو الله، ولذلك جميعهم أخوة. لم يلدهم رجل أو امرأة، بل ولدوا من الروح القدس في التبني، وصاروا وحدةً واحدة صنعتها المحبة المتبادَلة، فصاروا الخورس المستعد للإنشاد، والجيش العظيم الذي انضم إلى الذين شبقوهم في تمجيد الله منذ البدء. وما أروع هذا، فهم لم يجتمعوا فرداً فرداً، بل اجتمعوا مرةً واحدة، ومرةً واحدة استشهدوا، فكيف حدث ذلك؟

تميَّز هؤلاء الأبطال بمتانة الجسم وقوة العضلات والصحة فانخرطوا في سلك الجندية، وتعلموا مهارة القتال، وكان ثباتهم ما جعل القياصرة يمنحونهم مراتب الشرف، فصاروا أشهر المقاتلين وعرف الكل شجاعتهم.

ولما أعلن الأمر الإمبراطوري الذي يطلب إنكار المسيح ويتوعد المعترفين بالعذاب، وثارت ثائرة المضطهدين، فأخذوا يتوعدون المسيحيين بكل أصناف التعذيب. وثارت ثائرة قضاة الظلم، واشتد حنقهم على العابدين للإله الحقيقي. الغش والخداع اجتمعا عليهم، وأصناف العذابات أُعِدَّت. المعذِّبون لا يُشفِقون. النار أحرقت، والسيفُ أُرهِف، والصليب نُصِبَ، الهاوية فتحت فاها، والهنبازين والسياط. لقد أعدت جهنم كل آلاتها، هرب البعض، والبعض استسلم حتى قبل أن تدركهم التجربة وارتاعوا من الوعيد، والبعض عندما دنا الخطر خانتهم إرادتهم، وغيرهم نزل إلى الميدان، ولم يبقَ حتى نهاية المعركة وخذلتهم أقدامهم. والبعض أُصيب بالدوار مثل راكب البحر في وسط الزوبعة، فألقوا حمولة المركب من الصبر. أما هؤلاء الأبطال غير المغلوبين، جنود المسيح، جاءوا إلى الوسط، أمام الوالي الذي أبرز لهم الأمر الإمبراطوري، وأمرهم بالطاعة، فأجابوه بجرأةٍ وشجاعة غير خائفين من المشاهد المروِّعة التي أمامهم، ولا جزعين لِما توعدوا به، بل أعلنوا جهاراً أنهم مسيحيون. ما أنبل الأسنة التي نطقت بالاعتراف. لقد تقدس الهواء، واجتمعت الملائكة فرحةً، أما الشياطين وإبليس فقد جُرِحوا. لقد كتب الرب هذا في السماء.

صرخ كل واحدٍ منهم: أنا مسيحي. وكما أن الذين ينزلون حلبة المصارعة يذكرون

أسمائهم، ثم يتوجهون للخصم، هكذا فعل هؤلاء الشهداء، وتركوا الأسماء التي أُعطيت لهم يوم ميلادهم، وأخذ كل واحد منهم اسم المسيح مخلص الكل، فأصبح لهم اسماً واحداً، فلم يعلن أي منهم اسمه، بل الكل قال: أنا مسيحي.

ماذا يفعل الوالي؟ كان ماكراً. لجأ إلى الخداع والوعيد. جاملهم بالكلام الحلو على أمل أن ترتخي عزيمتهم وينكروا الإيمان، وأخذ يقول لهم: ارحموا شبابكم ولا تسرعوا إلى الموت بهذه السرعة، فالحياة مملؤة بالأطايب. أو من العار أن يموت الجنود الشرفاء الذين نالوا أعظم مراتب الشرف في الحرب مثل المجرمين والأشرار .. وزاد على ذلك فوعدهم بأموالٍ طائلةٍ ومراتب أعظم ومناصب أرفع، محاولاً بذلك أن يعزيهم بأن كل هذا من عند الإمبراطور. حاول بهذه الخدع أن يغلب ثبات إيمانهم.

وإذ فشل وعجز، انتقل إلى نوعٍ آخر من الحيل. هددهم بالضرب والموت تحت العذاب، هذا ما فعله قاضي الظلم. لكن، ماذا فعل الشهداء؟ أجابوا القاضي الظالم: لماذا تغرينا بالابتعاد عن الإله الحي؟ ألستَ بذلك تجعل نفسك عدوا لله وعبداً للشيطان؟ ما هي الخيرات التي تعرضها علينا، وهي لا تقاس بما تريد أنت أن تحرمنا منه. كيف نقبل هبةً عاقِبتها العذاب، وكيف نرضى بكرامةٍ تؤدي إلى العار، ماذا تقدم لنا؟!! أموالاً تفنى ومجداً باطلاً زائلاً؟ تريد أن تجعل كل منا صديقاً للملك، ولكن هذه الصداقة تجعلنا أعداء الملك الحقيقي. ماذا في العالم يغرينا، والكل عندنا باطلٌ؟ إن ما نراه لا يوازي الخيرات التي ذقناها ونترجى كمالها. انظر إلى السماء، ما أجملها وما أعظمها، والأرض كم فيها من غرائب، ولكن كل هذا لا يعادل سعادة القديسين. كل ما هو حولك زائلٌ، أما سعادتنا فباقية.

أمرٌ واحد فقط نطلب، وهو تاج البر. مجدٌ واحد فقط نعشقه، وهو مجد الملكوت، الذي نشتاق إليه لدرجة تجعلنا نخاف عذاب جهنم. النار التي أضرمت لا تخيفنا؛ لأننا لا نخاف إلَّا من النار الأبدية. إنها نارٌ مؤقتة تعرف الذين يعبدون الأوثان، وهم فقط الذين يخافون منها. الضرب هو سهام يصوبها صبيان. وجروح الجسد هي مجدٌ

لنا. وإذا مات الجسد فقد تحرر من ظلمكم الذي لا مجال له سوى الجسد، لعله يصل من الجسد إلى النفس. قضاتكم يريدون أن يكونوا أفضل من الله، وإلَّا غضبوا، وكأننا بالاعتراف بالإله الحقيقي قد ألحقنا بهم إهانةً، ولذلك يتوعدوننا بشر العذابات ويعتبرون إيماننا جريمة، لكن لن تجدوننا جبناء متخاذلين يحبون الحياة ويخافون من المصاعب، بل نحن على العكس بسبب محبة الله على استعدادٍ لأن يتحمل الكل عذاب الهنبازين والسحل بالخيل والنار وكل أنواع العذاب.

ولما سمع المتعجرف القاسي هذه الكلمات هالته جرأة الجنود الشجعان، وثرت ثائرته وغرق في بحر الأفكار لكي يخترع وسيلة تفوق غيرها تجعلهم يتعذبون طويلاً ويشربن مرارة الموت نقطةً نقطة، وهداه فكره إلى وسيلة قاسية بربرية: تأمَّلَ مناخ البلدة فوجده شديد البرودة، وفصل الشتاء قد حلَّ، وكانت ليلة اشتدت فيها البرودة، وهبت ريحٌ شمالية تقطِّر سماً، وأمر الوالي أن يخلع هؤلاء النبلاء ملابسهم وأن يظلوا في العراء حتى يموتوا من البرد. ولست أظن أنكم تتصورون ما هو برد الشتاء وعذابه الشديد، فإن الذين لم يختبروا قساوته لا يمكنهم أن يشعروا أو يتخيلوا ما يحدث للجسم، فالبرد القارس يخترقه، ويسوَّد لون الجلد بسبب تجمد الدم فيه وتدب فيه القشعريرة، وتصطك الأسنان وتتقلص الشرايين والعروق والعضلات، والويل إذا لمس شيء ذلك الجسد المتجمد؛ لأن اللمس يصبح عذاباً لا يطاق. وتسوَّدُ الأطرافُ كلها كأنها قد أُحرقت بالنار، وتيبس شيئاً فشيئاً. ويفقد الجسم الحرارة في الأطراف وتتحول الأطراف تدريجياً إلى عذاب، وهذا يسهل الموت شيئاً فشيئاً.

هكذا حكم الوالي بأن يبيتوا تلك الليلة في العراء، وكانت المدينة التي جاهد فيها الشهداء قائمة عند بركة من الماء تجمدت مياهها وصارت مثل الطريق المعبَّد يمكن أن تتسابق فيه الخيل ويمشي فوقه البشر آمنين.

لمس البرد كل شيء فتجمدت الأنهار، **وتحولت** المياه السائلة إلى صلابة الحجارة، وهبت ريح الشمال لتقتل كل شيء.

هنا ظهرت شجاعة هؤلاء الأبطال، فإنهم حالما سمعوا بالحكم أسرع كل منهم وخلع ثيابه عن آخرها ومشى إلى الموت، وكل منهم يحث أخيه على لقاء الجليد، وكانوا يقولون: لسنا نخلع ملابسنا، بل الإنسان العتيق الفاسد بشهوات الغرور (أف ٤: ٢٢). نشكرك يا رب على أننا تجردنا من ملابسنا، وبذلك تجردنا من الخطية التي سقطنا فيها بغواية الحية، وها نحن نتجرد منه لأجل المسيح، ها نحن عرايا لكي ننال الفردوس الذي أضعناه فتعرينا. بماذا نكافئ الرب على هذا الإحسان؟ إن الرب قد عُرِّيَ مثلنا، أفعظيمٌ أن يتألم العبد كسيده؟ إننا نحن السبب في تعري الرب على الصليب؛ لأن جنوداً مثلنا هم الذين تجرَّأوا وجردوه من ثيابه واقتسموها بينهم. يا ليتنا نحن الجنود **نمحو** هذه الوصمة التي لصقت بنا. الليل قارس، ولكن الفردوس دافئ. الجليد مؤلم، ولكن الراحة حلوة. لنصبر قليلاً ليكون لنا دفء حضن أب الآباء إبراهيم، وعوض ليلة باردة ننال الأبد. أقدامنا التي تسوَّدُ من البرد، وتكاد تحترق سوف تسير مع الملائكة. وأيدينا التي تكاد تنهار، سوف تُرفَع بدالةٍ إلى السيد.

كم من زملاء لنا من الجنود سقطوا في الحرب من أجل أمانتهم لملكٍ أرضي. أما نحن فنجود بحياتنا من أجل أمانتنا للملك الحقيقي. كم من أناسٍ ماتوا كمجرمين لأنهم نالوا جزاء اثمهم، أفلا نحتمل نحن الموت لأجل البر؟ لا خوف لأننا جنود، ولن يرَ الشيطان ظهورنا كهاربين. هذه أجسادنا اقتلوها. ولأن الموت حتمي، فلا مفر من الموت، فلنمت لكي نحيا ولتكن ذبيحة مقبولة عندك يا رب رائحة ذكية مقبولة (رو ١٢: ١). إن التقدمة جيدة والمحرقة جديدة تقدم بالبرد لا بالنار.

بهذا الكلام كانوا يشجعون بعضهم بعضاً، مثل حرسٍ يشجعون بعضهم بعضاً على السير من أجل قساوة العدو ومكره صابرين على عذابٍ، فرحين بسبب ما سيحل بهم في المستقبل هازئين بالعدو، وكان للجميع صلاة واحدة، وهي:

"يا سيد .. لقد دخلنا الميدان أربعين، فلنخرج أربعين متوجاً، ولا يقل عددنا المبارك لأنك شرفت هذا العدد بصومك الأربعين. وهو نفس العدد الذي نزلت فيه الشريعة.

ونفس العدد الذي التمس به إيليا وجهك بعد صوم أربعين".

إلَّا أن واحداً منهم قد غُلِبَ من شدة العذاب، فترك موضعه وهرب تاركاً في نفوس زملائه الشهداء غماً لا تعزية له. غير أن الله ضابط الكل أبى أن لا تُستجاب صلاة عبيده، فإن الجندي المكلف بحراسة الشهداء كان واقفاً قريباً من النار يستدفئ، وكان ينتظر ما سوف يحدث، مستعداً لأن يساعد الذين يطلبون المعونة هاربين. فالوالي كان قد فكر بأن يجعل قريباً منهم حمام ماء يتصاعد منه البخار لكي يهرب إليه من يريد منهم أن يهرب من البرد.

هذا ما دبَّره الوالي بخبثٍ، واختار المكان الملائم: بركة الماء المتجمد، وحمام الماء الساخن لكي يطيل عذاب الشهداء وغايته أن يقضي على ثبات المجاهدين بإعداد ما يناسب من أسباب الراحة. ومع هذا لم يكن وجود الحمام إلَّا دليلاً على صبر هؤلاء. فإن النبيل حقاً ليس من يصبر على الضنك وهو لا يملك شيئاً، بل هو من يملك، ثم يمتنع عن التمتع بما يملك.

كان القديسون يجاهدون، وكان الحارس يراقب ما يحدث، فأبصر منظراً عجيباً: ملائكة ينزلون من السماء يحملون أكاليل بهيةً يوزعونها على أولئك الجنود، فوزعوا الأكاليل على الكل ما عدا واحد تركوه بدون إكليل، وللحال خرج ذلك الجندي من وسط الجليد وهرب البطل، وعلى الفور صار مثل حملٍ بين أنياب الذب.

أما ما هو موجعٌ حقاً، هو كيف يخسر ذلك المسكين الحياة الأبدية ولم يتنعم حتى بالحياة الأرضية؛ لأن جسمه لم يحتمل الماء الساخن، فسقط فجأةً ميتاً ذلك الذي أحب الحياة. وهكذا ارتكب خطية الجحود دون أن يجني منها شيئاً. أما الحارس، فلما رأى أنه مات، قصد البركة وأخذ موضعه وألقى ثيابه وانضم إلى الشهداء صارخاً مثلهم أنا مسيحي، فأدهشهم هذا التحول المفاجئ، وكمل عددهم، فأزال بذلك غمهم الذي حلَّ بسبب ذلك المرتد المسكين. وصار ذلك مثل ساحة القتال التي كلما سقط فيها واحد من الصفوف الأولى، حلَّ آخر محله وسد الثغرة في الصفوف،

فلا ينفذ منها العدو. هذا ما فعله الحارس. لقد رأى ذلك المنظر السماوي وعرف الحق ولجأ إلى السيد، فأُحصيَ مع الشهداء. وبذلك تم ما حدث للرسل؛ لأن يهوذا بعد ما ترك مكانه أخذه متياس (أع ١: ١٦)، وصار ذلك الحارس مثل بولس الذي بعد أن كان بالأمس مضطهِداً للكنيسة، أصبح المبشِّر بالإيمان. لأنه دُعيَ من السماء مباشرةً، وليس من قِبَلِ الناس ولا بواسطة إنسان (غلا ١: ١١). هكذا آمن ذلك الحارس بربنا يسوع المسيح واعتمد فوراً لا بواسطة آخر، بل عمَّده إيمانه ليس بالماء ولكن بالدم.

ولما انتصف النهار، وكانوا لا زالوا أحياء ألقوا بهم إلى النار وحرقوهم، ثم جمعوا رمادهم وألقوه في النهر، لكي تشترك كل عناصر الكون في استشهادهم. كافحوا على الأرض وصبروا على الرياح الباردة والجليد وأخيراً ألقوهم في النار، ثم تقبلت المياه بقاياهم، ويحق لهم أن يهتفوا: "جزنا في النار والماء ثم أخرجتنا إلى الراحة" (مز ٦٥: ١٢).

هؤلاء الذين حلّوا بجوارنا فصاروا أبراجاً وحصوناً منيعةً، يحمون بلدنا من الأعداء. لكنهم لم يحلوا هنا فقط، بل حلوا ضيوفاً في بلادٍ كثيرةٍ. ومن الغريب أنهم لا زالوا حتى هذه اللحظة يظهرون معاً، جماعةً واحدةً. هم معنا هنا وفي كل مكان، ولو حلّوا في مائة مكان لا زالوا أربعين. لأنهم مثل النار التي تسري حرارتها لكل من يقترب منها، وتظل ناراً واحدة. هكذا هؤلاء الشهداء الأربعين، هم معاً واحداً مثل ينبوعٍ ونعمة. إنهم معونة لنا نحن المسيحيين، معونة حاضرة دائمة هؤلاء الشهداء، الجيش الظافر والخورس الذي يمجد الله.

لا تفكر هل ستجد شفيعاً ليتشفع لك لدى الرب؟ ها هنا أربعون شفيعاً يتضرعون بصوتٍ واحدٍ. لقد قال السيد: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون في وسطهم" (مت ١٨: ٢٠). وها هم أربعين، فهل ستشك في حضور الله في وسطهم؟

ليطلب المغموم والمسرور أيضاً شفاعة الأربعين. لأن الأول سينال معونةً، أما الآخر

فسيدوم فرحه. ولتطلب النساء القديسات معونة هؤلاء من أجل أبنائها، أو رجوع رجلٍ غائبٍ، أو سلامة المريض". ولكن لتكن صلواتكم حاضرة مع صلوات الشهداء.

هم قدوة للشبان، ويا ليت الآباء يطلبون من الله أبناء مثلهم. فليتعلمن من أم الشهيد الصالحة التي رأت أن ابنها لم يزل فيه بقية حياة بعكس أصحابه وذلك لقوة جسده وقدرته على الاحتمال، ولما رأت الشرطة قد تركوه لعله يغيِّر رأيه، حملته على ذراعيها ووضعته في المركبة مع زملائه لكي يؤخذوا للحريق. هذه أمٌّ حقيقية، تستحق أن تكون أم شهيد لأنها لم تذرف الدموع، ولم تندب حظها، ولا قالت سوى كلمات الإيمان: "سر يا بني في طريقك الصالح مع زملائك ولا تتخلف عنهم لكي لا تظهر أمام السيد بعدهم".

فيا للغصن الكريم من الشجرة الكريمة الجذور. لقد أرضعت هذه الأم ابنها بالتقوى وليس باللبن فقط. وهكذا ربته وهكذا ودعته. فهل لدينا تقوى مثلها؟ إن الشيطان قد خجل وارتد مطعوناً لأنه أثار عليهم القوى الطبيعية، ولكن هؤلاء الشجعان غلبوه وانتصروا على الليل الطويل القارس والبرد والشتاء وتعري الأجسام.

أيها الخورس المقدس والرتبة الطاهرة والجيش الذي لا يُرم، أيها الحراس الساهرون على البشر والمعاونون الكل في حياتهم والمشاركون معنا في الصلاة، أيها الشفعاء المقتدرون يا نجوم المسكونة وأزهار الكنائس، إن الأرض لم تستطع أن تحتفظ بكم، ولذلك قبلتكم السماء وفتحت لكم أبواب الفردوس. استقبلتكم جنود الملائكة مع الآباء والأنبياء والصديقين. إن شباباً مثلكم يحتقرون الحياة ويحبون الله أكثر من الوالدين قد استهانوا بما في هذه الحياة من آمال لكي يمجدوا الله في أعضائهم، فصاروا بذلك منظراً للملائكة والناس (١ كور ٤: ٩). أقاموا الساقطين؛ لأنهم مثل مثال الثبات. وثبّتوا الضعفاء وقووا اهتمام القديسين، وصاروا علامة الإيمان وبيارق الانتصار، فنالوا إكليل البر بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد والعزة إلى دهر الدهور آمين".

الفصل الخامس

ظهور العذراء والقديس يوحنا الرسول، للأسقف غريغوريوس العجائبي

ذكر هذه الحادثة القديس غريغوريوس النيسي في كتابه عن حياة القديس غريغوريوس العجائبي، فيقول:

"عندما اضطر غريغوريوس أن يحمل نير الأسقفية، وبعدما تمت صلوات الرسامة، سأل الذين أعطوه خدمة الكهنوت فسحةً من الوقت لكي يحصل على معرفةٍ أكثر بأسرار الإيمان؛ لأنه شعر أنه لا يجب أن يسأل لحماً ودماً حسب كلمات الرسول (غلا ١: ١٦)، وسأل من الرب أن يعلن له الأسرار المخفية لأنه لا يملك الجرأة على الكرازة بالكلمة قبل أن ينال إعلاناً فاقاً عن الحق. وإذا سهر طوال الليل في كلمة الإيمان ويناقش نفسه في كل البراهين التي يعرفها؛ لأنه في ذلك الزمان كما في أيامنا، كان هناك من يحاول تزييف التعليم الأرثوذكسي، وذلك بإحاطة الحق بضباب الغموض وبراهين مضادة لها طبيعة الزئبق. وإذا كان راقداً يفكر في هذه الأمور بقلق سائلاً نفسه عن الحق، ظهر له شخصٌ في شكل بشري على هيئة شيخ طاعن في السن، وله هيئة مقدسة، فتعجَّب غريغوريوس من الرؤيا حتى أنه نهض من فراشه ليسأل هذا الشخص عن اسمه وعن سبب مجيئه، لكن الشيخ أشار إليه وتحدث معه بكلمات رقيقة هدَّأت من قلقه وقال له إنه بتدبير إلهي قد ظهر له من أجل الأسئلة التي تحيِّرُه، وحتى ما يُظهِر له الحق في الإيمان الأرثوذكسي. وعندما سمع غريغوريوس هذه الكلمات تشجع، ولكن الشيخ أشار إليه بيده أن ينظر إلى جانبه، فتطلع غريغوريوس ورأى امرأةً في شكلٍ بشري، لكنها أسمى من أن يعبَّر عنها، وعندما أغشته الرعدة ولم

يعد قادراً على أن يتطلع إل ما حوله من الخوف لأنه رغم أن الوقت كان ليلاً، إلَّا أن نوراً كان يشع عليه من الشخصين الذين ظهرا له، وكان النور شديد اللمعان، وإذ كانت عيناه لا تقدران على التطلع إليهما سمعهما يتحدثان عن شكوكه، وسمع كلاً منهما ينادي الآخر باسمه ولقبه؛ لأنه سمع المرأة تطلب من "يوحنا الإنجيلي" أن يُظهِر أسرار التقوى لهذا الشاب (غريغوريوس)، وكان رد يوحنا أنه سوف يصنع حسب رغبة "والدة الإله"، وهنا علَّمه يوحنا كلمات الإيمان".

وتنتهي القصة بنهوض القديس غريغوريوس العجائبي ليكتب كلمات قانون الإيمان (De vita St, Greg. Thaum PG 46: 910.).

الكنيسة والفردوس وشجرة الحياة والسيف الناري وشفاعة الشهداء:

"عندما طرد آدم وحواء من الفردوس. أمر الله سيفاً نارياً أن يحرس طريق الفردوس (تك ٣: ٢٤) والسبب في ذلك هو أن الله أراد أن يمنعهما من الأكل من شجرة الحياة حتى لا يأخذا منها عدم الموت ... السيف المتقلب الناري (الذي يدور دائماً) هل سيمنع هذا السيف المحاربين من دخول الفردوس؟ وما هو الرجاء الباقي لهما إذا كان صراعهم من أجل الإيمان سوف ينتهي إلى هذه النهاية؟ هل سيكون لهم مصير أقل من مصير اللص الذي قال له الرب "اليوم تكون معي في الفردوس" (لوقا ٢٣: ٢٣)، رغم أن اللص لم يقبل الصلب بإرادة حرة، ولكن عندما اقترب خلاصه هذا اللص الذكي وسريع القرار رأى الكنز واغتنم الفرصة التي جاءت إليه وسرق الحياة واستخدم المكر والذكاء الذي يخصه كلص قائلاً: "اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك" (لوقا ٢٣: ٢٢)، عند ذلك اعتبر مستحقاً الفردوس. فهل سيمنع السيف الناري المتقلب القديسين من دخول الفردوس؟ .. إنه سيمنع غير المستعدين وغير المستحقين؛ لأنه سوف يُشهَر في وجوههم .. أما نحن الذين لنا هذا الطريق ونسير فيه بثقة، سوف ندخل الفردوس؛ لأننا قد قبلنا بشفاعتهم القوة التي للاعتراف الحسن

بربنا يسوع المسيح الذي له المجد الدائم إلى الأبد". (مجموعة كتابات القديس غريغوريوس النيسي – الأصل اليوناني).

الفصل السادس

القديس يوحنا ذهبي الفم

ترك يوحنا ما يقرب من ٨٢٠ عظة و٢٤٥ رسالة، ضمن مجلدات شرح الأسفار وشذرات في شكل اقتباسات. خدم يوحنا في الفترة ما بين ٣٧٨-٤٠٦ وهي فترة خدمته شماساً إلى أن نُفي وطُرد من القسطنطينية ومات في المنفى.

يوحنا سرياني الأصل وُلِد في انطاكية حوالي ٣٤٩ ورُسِم أسقفاً في ٣٩٧ ونُفى في عام ٤٠٣ وعاد، ولكنه نُفي مرةً ثانية في ٢٠ يونيو ٤٠٤ إلى أرمينيا، ورقد في الرب في ١٤ سبتمبر ٤٠٧ بعد أن قال عبارته المشهورة: "المجد لله في كل شيء".

انطاكية العظيمة كانت تحيط بها جماعات سكانية في أطراف المدينة مثلها مثل القاهرة الكبرى المحاطة بالجيزة – مصر الجديدة – حلوان. وكان أحد أهم هذه الأماكن هو منطقة *Daphne* دافني. بنى المسيحيون كنيسة للمكابيين شهداء اليهودية، وكانت في المنطقة الآهلة باليهود حوالي ٣٨٠ وكان للمكابيين عيدٌ يُحتفل به، واعتبر استشهاد المكابيين بداية الاستشهاد في المسيحية.

نص العظة عن الشهداء:

ليس هذا النص الكامل، وإنما هو مختارات *P.G.50: 645-54*

"بالأمس كان يوم الشهداء، واليوم أيضاً هو يوم الشهداء .. هنا تشاهدون موكب يقوده الله بمركبات ليس فيها حيوانات عجماء، بل جيش الشهداء، والله هو قائد الموكب، يقود الكل في طريق للسماء؛ لأن نفوس الشهداء هي مركبات الله. واسمعوا

ما يقوله النبي في هذه الكلمات:" مركبات الله ألوف وربوات بلا عدد" (مزمور ٦٧: ١٨س)؛ لأن الله أعطانا حراً ما وهبه للقوات السماوية، فهو يجلس على الشاروبيم كما يقول المزمور (١٧: ١١س وأيضاً دانيال ٣: ٥٥). و في مناسبة أخرى أعطانا نحن أيضاً هذه النعمة: أن نجلس معه في الأعالي حيث هو يجلس؛ لأنه يسكن فينا "أنا أسكن وأسير معهم" (٢كو ٦: ١٦ لاويين ٢٦: ١٢).

عندما يقدِّم شهيد أعضاء جسده: اليدين والقدمين ولسانه، بل جسده كله، فإن الشهداء يقدِّمون برهاناً بالسلوك أقوى من كل ما يمكن أن يُقال عن الشجاعة؛ لكي يذهب، بل يُباد خوف الذين يشاهدونهم. هل ترون الآن أن صمت الشهداء هو أقوى صوت يمكن أن نسمعه؟ ...

أجساد الشهداء:

إن أجساد الشهداء هي ميناء سالم، وينبوع لمجاري روحية، ومخازن لا يُستهلَك ما فيها من خيرات. وكما أن الميناء يعطي سلاماً للسفن التي تضربها الأمواج العاتية، هكذا أجساد الشهداء تعطي لنفوسنا هدوءاً وسلاماً نحن الذين نغرق في هموم ومستنقعات الحياة اليومية. وكما أن ينابيع المياه الباردة تنعش الأجساد المتعَبَة التي أحرقتها الحرارة والحمى، هكذا أيضاً أجساد الشهداء، تعطي برداً للنفوس المشتعلة بالشهوات البغيضة. إن النظر وحده يطفئ الشهوة الشريرة، ويحرق شهوات الجسد، ويهدأ من ثورة الغضب، بل كل الأمور الأخرى التي يمكن أن تضايقنا، فهذه الأجساد أفضل من مخازن تحتوي على خيرات كثيرة. إن كنوز الأموال تقدم لنا أخطاراً تُكتَشَف بعد ذلك؛ لأن هذه الكنوز عندما توزَّع إلى أقسام متعددة، يفقد الكنز مقداره الكبير، ولكن هنا لدينا عكس ذلك. هنا نكشف كنزاً بلا أخطار، وتوزيع ما في الكنز لا يؤدي إلى فقدان ما في الكنز، بل العكس يحدث؛ لأن التوزيع يخلق كنوزاً أخرى .. أمَّا الأمور الروحية، فهي تزيد بالتوزيع وتنمو عندما تقدم. بل إن الحدائق المزينة بالزهور والورود لكي يراها الناس لا تعطي ذات البهجة التي نراها عند قبور الشهداء؛ لأنها

تعطي لنا ما لا يفسد وسعادة لا يمكن أن تُقهر لكي نفس ترى هذه القبور.

توابيت الشهداء والتوبة:

لنمسك بهذه التوابيت بالإيمان، ولكي يشتعل القلب بنار، ولكي نبكِ على ما فعلناه من أفعال رديئة وخطايا كثيرة؛ لأننا فعلاً نحتاج إلى شفاء واعتراف. لقد سفك الشهداء دمائهم، يا ليت عيوننا تسكب الدموع؛ لأن الدموع لديها قدرة على أن تطفئ نار الخطية. لقد سُحقت ضلوع الشهداء وشاهدوا الذين يقتلونهم بجانبهم. يا ليت هذا يستقر في ضمائرنا نحن أيضاً لكي يجلس الوعي على عرش عقلك ولا يحابي لكي تطفو خطاياك المستترة إلى رؤيتك، فترى حالتك والأفعال السيئة التي فعلتها، ولكي تبيد كل الشهوات وخطاياك ولكي تُسحق بقوة عظمى ...

يا ليتنا نسحق الأفكار التي فينا ونحكم عليها ونطردها من عقولنا التي لم تتعلم الانضباط ...".

الشيطان يقف خارج مبنى الكنيسة:

"يقف الشيطان خارج الكنيسة. لا يقوى أن يدخل الحظيرة المقدسة، أي حيث يوجد قطيع المسيح، إذ لا يقدر ذئبٌ على الدخول .. فهو يقف خارج الحظيرة خائف من الراعي".

العظة الثانية عن الشهداء: (الشهداء والصراع ضد الشياطين):

"لنتعلم معاً هذه الحقيقة لأن جراح الشهداء تلمع بضياء أكثر من الكواكب؛ لأن البشر والشياطين قادرون على التطلع إلى السماء حيث الكواكب اللامعة، إلَّا أنه في الوقت الذي يستطيع فيه البشر من المؤمنين معاينة ورؤية جراح الشهيد، فان الشياطين لا تتجاسر أن تحدق فيها، ولو حاولوا ذلك، فإن عيونهم تصاب بالعمى؛ لأن قدرتهم

على الرؤيا لا تقوى على معاينة النور الصادر منها ... ما حدث في زمان سابق، بل ما يحدث الآن إذا دخل شخصٌ عليه روح نجس ويتصرف في جنون وأخذه مَن معه إلى قبرٍ مقدس حيث يوجد جسد شهيد، فإننا نراه يقفز ويحاول الهروب، بل في سرعة يفتشون عن الباب للخروج بكل سرعة كما لو كانوا يسيرون على فحم مشتعل بالنار. بل تراهم بعد ذلك عاجزين حتى عن رؤية باب المقبرة حيث عظام القديسين، رغم أن هذه العظام صارت رماداً، إلَّا أنهم عاينوا نور هذه الأجساد التي غُسلت بدمائها، وعاينوا النور الصادر من هذه الجروح، ولذلك في فزع كما لو كان الرعب قد ضربهم بقسوة.

زيارة أماكن دفن الشهداء:

"لماذا تسرعون لزيارة هذه الكنيسة في هذه الضاحية؟ ها هي مثل أورشليم العليا، إنها هنا دافني Daphne الروحية حيث توجد ينابيع المياه وهي ينابيع الشهداء.

افتحوا عيون إيمانكم لكي تروا ثمار أشجارٍ على فروع شجرات مثمرة وهي لا تعطي ثمرات تفسد وتصاب بالعطب. هي لشفاء أجساد بها حمى (الخطية) لكي تنال غفران الخطايا وترك الشرور وشفاء أمراض النفس وشجاعة في الصلاة لله .. كل ما حولنا هو روحي مملوء بالبركات السماوية".

الشهداء يشاركون الاحتفال بالعيد:

كانت جموع غفيرة تأتي لأعياد الشهداء وتقام الأسواق وخيام الزائرين. وكانت الأناشيد والموسيقى والمآدب تقام، وهو ما يذكره ذهبي الفم في أكثر من عظة.

"احضروا معكم إخوتكم واخواتكم. هل تريدون أن تشتركوا في مأدبة طعام مادي؟ بعد نهاية المأدبة يمكنكم الاستراحة تحت أشجار الجميز قرب مدفن كنيسة الشهيد، وأن تستريحوا، فراحة الجسد مع قليل من النبيذ؛ لأنه مع الراحة يختفي التعب ويذهب

عناء الشعور بالذنب. الشهيد يلاحظكم عن قرب، بل يقف قرب المائدة يشارككم الفرح فلا تجعلوا المأدبة فرصة للخطية".

عظة عن الشهيد بابيلاس Babylas:

في نفس الضاحية *Daphne* في إحدى ضواحي انطاكية، وهي عظة قيلت يوم ٢٤ يناير عيد استشهاد بابيلاس وكان أسقفاً لأنطاكية واستشهد في زمن دقلديانوس.

ويذكر المؤرخ الكنسي سقراط (تاريخ الكنيسة ٣: ١٨) أن يوليانوس الجاحد وهو في طريقه للحرب مع الفرس مرَّ بأنطاكية لكي يسأل العرافين عن المستقبل، ولكن هؤلاء مع آخرين أخبروه بأن العرافة انقطعت بسبب دفن الشهيد بابيلاس في مكان قريب من معبد الإله أبولو *Apollo*.

"اليوم أريد أن أدفع الدين الذي وعدت بأن أدفعه عندما كنت عندكم من فترة قريبة. وماذا يجب أن أفعل الآن؟ في هذا الوقت بالذات بابيلاس المبارك قد ظهر وقد دعانا جميعاً بالصمت دون أن ينطق لأنه شد انتباهنا بالرؤية اللامعة.

الشهيد وقوة الروح القدس عربون القيامة:

"الإنسان الذي يحيا حسب الحياة الإنسانية العادية لا يمكن أن يقدم شيئاً بعد موته، ولكن الشهيد يقدم لنا أموراً بالغة الأهمية، لا لكي ينالوا شهرةً عندنا لأنهم لا يطلبون شهرة عند عامة الناس. ولكن عندكم أنتم وليس عند غير المؤمنين. إن موت الشهيد ليس موتاً، بل بداية حياة جديدة أفضل وعربون مجمع روحي وتحول من السيء إلى الأفضل. يقيناً لا تنظروا إلى حقيقة جسد الشهيد نائماً كما لو كان بلا قوة، ولكن بالحري اعتبروا أن قوة ثانية أعظم من النفس قد بُثت في النفس، وهي نعمة الروح القدس، وهي التي تصنع المعجزات وتجعلنا نعترف بالقيامة. ما أريد أن أقوله هو إن الله أعطى الأجساد التي ماتت وتحللت وصارت تراباً قوةً أكثر من القوة التي كانت لها

أثناء الحياة، بل بدرجة أعظم عندما لبست الأكاليل؛ لأن الله سوف يمنح هؤلاء حياةً أعظم وأفضل بما لا يُقاس بالحياة الأولى قبل الاستشهاد. فما هو الأفضل؟ لا تتعجلوا لأن الفنانين الذين يريدون من المشاهدين رؤية إنجاز رسوماتهم، يطلبون من المشاهدين أن يبتعدوا قليلاً، ولذلك أريد أن أعود إلى البداية لكي أخبركم بالقصة كلها.

عندما تولى يوليانوس (الجاحد) العرش وفاق الذين سبقوه في عدم التقوى وحصل على صولجان الطاغية، امتدت يديه إلى الله الذي خلقه، وتمرد على نعمته كواهب للحياة، وظن أنه ينظر إلى الأرض من فوق السماء، وظل ينبح مثل الكلاب المسعورة التي تنهش الذين يقدمون لها الطعام وحتى الذين لا يقدمون لها الطعام. بل فاق جنونه جنون الكلاب المسعورة .. هذا الرجل صار يرحب بالشياطين المضادة لخلاصه ويمدحهم بكل أنواع المديح لكي يتقرب منهم، وفي نفس الوقت يطرد ويكره المخلص الصالح الذي لم يبخل حتى بابنه الوحيد (رو ٨: ٣٢)، فصار يحارب الصليب الذي أقام المسكونة الساقطة على وجهها، وطارد كل قوات الظلمة من كل مكان وركن، وأعطانا نوراً أسطع من نور الشمس. ولم يتوقف جنونه عند ذلك الحد، بل أعلن أن جنس الجليليين (نسبة إلى يسوع من الجليل) لأنه هكذا كانوا يدعون[١] سوف يختفي من وسط الأرض، والأكثر من ذلك أنه اعتبر أن اسم "المسيحيين" هو رجسٌ، وأنه مملوء بكل عار. لماذا أطلق علينا اسم الجليليين؟ لأنه أراد أن يحقرنا؛ لأنه الاسم الذي يميزنا عن بقية المواطنين، ولكنه الاسم الذي يميزنا نحن ليس عن البشر فقط، بل عن الملائكة أيضاً الذين يخدمون المسيح. وهكذا فعل كل ما يستطيع لكي يمحو ويسرق منا كل ما يميزنا ويبطل رسالة الخلاص..".

---

(١) كتب يوليانوس الجاحد كتاباً بعنوان "ضد الجليليين" يفند فيه الكتاب المقدس، وعقائد المسيحية من وجهة نظر وثنية في عام ٣٦٣ وربما ما بين ٣٦١ – ٣٦٣، ويعتبر هذا الكتاب هو نواة كل ما كتب ضد الكتاب المقدس والمسيحية عبر كل العصور. وقد كتب القديس كيرلس رداً عليه.

العرافة في معبد أبوللو:

"هكذا ذهب هذا الامبراطور إلى دافني Daphne وصار يتوسل باستمرار إلى أبوللو بالصلاة والتذلل وبذبح أعداد من الماشية لكي يعلن له أبوللو المستقبل في رسالة. وهناك ماذا قال له الرأس على لسان إله الوثنيين العظيم؟ إن أجساد الموتى تمنعني من الكلام. فقال له: "افتح التوابيت واحفر باحثاً عن العظام، وانقل هذه الأجساد من هذا المكان. هل كان هناك شيء أحط من هذا التعليم؟ لقد قدمت الشياطين قانوناً جديداً وهو سرقة قبور الموتى وطرد الموتى كما لو كانوا غرباء. من الذي عاش وسمع عن نقل أجساد الموتى؟

لكن الامبراطور رأى أن الأجساد التي لا حياة فيها يجب أن تُنقل إلى مكان آخر كما أمره الإله أبوللو الذي قلب حتى نظام القانون الطبيعي للإنسانية التي تحترم الموتى وهدم أساسها. النقطة التي أريد أن اسجلها هنا هو أنه توجد قوانين طبيعية عامة عند كل البشر، وهي دفن الموتى في الأرض في قبور وتثوى بتراب الأرض الأم التي منها كل شيء .. فلا الوثنيين ولا البرابرة (الذين ليسوا مواطنين رومان) والمتوحشين تعدَّى هذه القوانين.

ما أكثر الأنبياء الذين عاشوا وتنبأوا عن المستقبل، ولكن ولا واحد منهم أمر أحداً من الناس الذين سألوه أن يحفر قبور وينقل عظام الموتى. بل العكس هو ما حدث، فقد وقف حزقيال النبي عند عظام الموتى وتنبأ ولم تمنعه العظام من أن يتنبأ، بل رأى أن هذه العظام قد عادت إلى الحياة وكساها اللحم والجلد (حزقيال ٣٧: ١-١٠). وهكذا فعل موسى العظيم الذي لم يقف عند عظام الموتى، بل أمر بنقل جسد يوسف (خروج ١٣: ١٩) .. هذا حق لأن كلمات هؤلاء هي عطية الروح القدس .. كانت كلمات العراف مجرد حجة لأنه كان يخاف بابيلاس المبارك، وهذا واضح لأنه طلب من الامبراطور نقل رفات الشهيد وليس الأجساد الأخرى.

ماذا حدث عند فتح التابوت ونقل جسد بابيلاس؟

"عندما تم نقل التابوت في اتجاه المدينة سقطت كرة نارية مع برق من السماء على رأس التمثال (أبوللو) واحترق كله. واحتدم غضب الامبراطور ووجه غضبه إلى كنيسة المزار لكي يهدمها ولكن خوفاً تملكه فلم يقترب منها".

وبعد أن يصف يوحنا الاحتفال الكبير بإعادة دفن الشهيد، يختم العظة بقوله:

"لنشكر الله على كل شيء وعلى عطاياه لأنه منحنا الشهداء النبلاء والرعاة الذين استحقوا الشهادة وصاروا شهداء لأجل "تكميل القديسين وبناء جسد المسيح" (افسس ٤: ١٢) للمسيح المجد والكرامة والقوة مع الآب ومع الروح القدس خالق الحياة الآن وكل أوان والى الأبد آمين".

عظة على الشهيدة العذراء بيلاجية Pelagia:

لدينا من انطاكية اثنتان تحمل كلاهما اسم بيلاجية. الأولى كانت عاهرة في انطاكية وجمعت الكثير من الأموات، ولكنها مرت من أمام كنيسة كان يعظ فيها الأسقف نونوس *Nonnos* وقررت أن تترك الزنى وتعود إلى الحياة ونالت المعمودية ووزعت ثروتها على الفقراء وذهبت إلى اورشليم وعاشت الحياة النسكية، وهناك أعطاها الروح القدس أن تعمل معجزات كثيرة. أما بيلاجية في هذه العظة، فهي ذات العذراء التي وصفها القديس امبروسيوس في كتابه عن البتولية (٣: ٧، ٣٣-٣٧)، وكانت عذراء من انطاكية أيضاً وفي زمان دقلديانوس. أحاط الجند بمنزلها لكي يقودها إلى السجن، وكان الاعتداء الجنسي هو ممارسة عامة عند الجنود، وطلبت منهم الانتظار لكي تغيِّر ملابسها، ولبست ملابس تليق بالعرس، وصعدت إلى أعلى المنزل وألقت بنفسها في الطريق وماتت. بعد أن استعدت للقاء العريس السمائي، وتعيِّد لها الكنيسة الانطاكية في ٨ أكتوبر.

يمدح يوحنا شجاعة بيلاجية التي فضَّلت الموت على أن تكون فريسة لوحوش من البشر، وبعد أن مدح شجاعتها يقول:

"علينا أن نعرف أن هذا لم يكن ممكناً بدون معونة الله؛ لأن هذا واضح من الغيرة؛ لأن حتى الجنود لم يدركوا الحيلة التي لجأت اليها .." ويختم بقوله: "بصلوات هذه العذراء القديسة وكل الذين احتملوا نفس العذاب معها أن يحفظ ذكرى هؤلاء لا سيما ما ذكرته وأن يصبح هذا مثالاً لكم في كل ما تفعلون لكي تداومون على إرضاء الله في كل شيء الذي له المجد القوة من الآن والى الأبد آمين. (P.G. 501 579-584).

الوسيط

"لأنه يوجد إلهٌ واحد ووسيطٌ واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح. الذي بذل نفسه فديةً عن الجميع شهادةً في الوقت المعيَّن" (١ تيمو ٢: ٥، ٦). يقول هنا يوجد إله واحد، أي لا يوجد تعدد آلهة. وإن هذا الإله الواحد أرسل ابنه كوسيطٍ لكي يعطي الدليل على أنه يريد أن يخلِّص البشرية. لكن، أليس الابن هو الله؟ بكل تأكيد هو. لكن لماذا قال الله واحد؟ هذا لكي يميِّز بين الوثنية، أي عبادة التماثيل، والديانة الحقيقية، وليس بين الله والابن؛ لأن الرسول يتحدث هنا عن الحق والباطل. أمَّا الوسيط، فلا بُد أن يكون على صلةٍ بالطرفين الذين يتوسط بينهما؛ لأن هذه هي الصفة الأساسية في الوسيط، أن يكون مشترِكاً مع كلٍّ من الطرفين الذين يصالحهما، ولا يمكن أن يكون وسيطاً إذا كان على صلةٍ بواحد من الطرفين، ومنفصلاً عن الآخر. لذلك، إذا لم يكن الابن من ذات طبيعة الآب، فهو ليس بوسيط، وإنما منفصلاً عن الآب، وبالتالي لا يمكنه أن يتوسط بين الآب والناس. ولكنه اشترك في طبيعة الناس، إذ صار إنساناً، وهو من ذات طبيعة الله؛ لأنه جاء من الله. ولأنه جاء يتوسط بين الاثنين، كان من الضروري أن يجمع الاثنين، ويتصل بالاثنين حتى يكون وسيطاً، ولذلك صار إنساناً، وكان الله في نفس الوقت.

والإنسان لا يستطيع أن يكون وسيطاً لأنه يترجى الله. والله لا يمكنه أن يكون وسيطاً لأن الذين جاء يتوسط بينهم لا يستطيعون أن يقبلوه. على أيةِ حالٍ في موضعٍ آخر يقول: لنا إله واحد الآب وربٌّ واحد يسوع المسيح (١ كور ٨: ٦)، وهكذا في هذا النص نقرأ إلهٌ واحد ووسيط واحد، وهو لا يقول اثنين؛ لأن في الاثنين تعدد آلهة، وهو ما قد رفضه الرسول، وما كان ليتحدث عنه، ولذلك تحدث عن إله واحد وعن وسيط واحد. ولعلكم من هذا تستطيعون أن تدركوا دقة تعبير الأسفار المقدسة "الذي بذل نفسه فديةً عن الجميع"، هل كان المسيحُ إذن فديةً عن الوثنيين؟ بدون شكٍ؛ لأن المسيح مات من أجل الوثنيين، وها أنت لا تحتمل مجرد الصلاة لأجلهم. ولماذا تسأل عن سبب عدم إيمانهم؟ إنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا، ولكن الذي على الابن أن يفعله قد تممه، وكانت آلامه شهادةً ..." (Hom VII in 1 Timothy 2: 5,6).

هكذا يشهد لنا التاريخ والآباء والليتورجية، فإين من يتهمون الأرثوذكسية بعبادة الأموات، من التاريخ أو الآباء أو الليتورجية؟

ها هم الآباء يا سادة، فإذا كنتم تنادون بالعودة إليهم، فلماذا لا نرى احتفالاً واحداً بعيدٍ لشهيد أو بعيد لقديس عظيم مثل أثناسيوس؟ الآن ظهر كذب الذين يتمحكون في الآباء طمعاً في أبناء أم الشهداء يملئون بهم اجتماعاتهم.

وإلى أبناء أم الشهداء، هل وعيتم المشهد؟ هل انكشفت الفرية الكبرى، أم انخدعتم في بساطتكم بما حيك لكم من حبائل؟

ملحق القسم الثاني

صلوات الشهداء قبل استشهادهم[١]

القديس بوليكارب: (١٥٦م)

استشهد وعمره ٨٦ عاماً. وصف استشهاده أحد المؤمنين في خطاب إلى كنيسة سميرنا (أزمير بتركيا). ويقول شاهد العيان:

"وربطوه في لوحٍ من الخشب دون أن يدقوا المسامير في يديه، بل ربطوا يديه خلف ظهره، ثم قادوه مثل كبش اختير للذبح، وعندما ساقوه للنار كان يصلي ويقول:

(أيها الرب الإله ضابط الكل، آب ربنا يسوع المسيح ابنك الحبيب الذي فيه عرفناك إله الملائكة والقوات، إله كل الخليقة، وإله كل الذين يعيشون في حضرتك، أي جنس الأبرار.

أباركك لأنك أردت أن أكون مستحقاً لهذا اليوم وهذه الساعة. وأن أكون مستحقاً أن أُحسَب في عداد شهدائك، وأن أشرب من ذات الكأس التي شرب منها مسيحك لكي أقوم حياً إلى الأبد بالنفس والجسد في عدم الفساد، أي روحك القدوس.

اسمح لي أن أدخل معهم في حضرتك اليوم، وأن أُحسَب كذبيحة مقبولة عندك؛ لأنك جعلت حياتي استعداداً لذلك. وأريتني سابقاً أن هذا سيحدث لي وها هو قد

---

(١) قمنا بترجمة وإعداد هذه النصوص، ونُشِرت في مقال بمجلة مرقس عدد سبتمبر ١٩٧٥.

تم[١] وأنت الإله الفادي الذي أباركه على كل بركاته، وأعطي لك المجد في رئيس الكهنة الأبدي السمائي يسوع المسيح ابنك الحبيب الذي هو معك ومع الروح القدس وفيه نقدم لك المجد الآب وفي كل الدهور الآتية آمين[٢]".

كاريوس وبابيليوس وأجاثونيك[٣]

كان كاريوس أسقفاً، وبابيليوس شماساً، أمَّا أجاثونيك فهي امرأة متزوجة. وقد أُحرِقَ الجميع بالنار في برجامون (تركيا). ويحدد العالم الألماني *Altaner* تاريخ استشهادهم خلال حكم ماركوس أوريليوس[٤] أي بين سنة ١٦١ – ١٨٠. ويقول شاهد العيان:

"عندما رأى بابيليوس أكوام الخشب المعدة للنار، رفع عينيه إلى السماء وقال: (**يا رب يسوع أقبل روحي**). وحالما دفعوه في النار مات على الفور.

أمَّا كاريوس فقد ربطوه في العامود وعندما أشعلوا النار وبدأت ألسنة النار تحرقه، صرخ بصوت عظيم وقال: (**البركة لك يا رب يسوع المسيح ابن الله لأنك جعلتني مستحقاً أن أشترك في هذا المصير، رغم أنني خاطئ**). وبعد ذلك أسلم الروح.

وعندما جاء دور أجاثونيك قالت: (يا رب، يا رب، يا رب أسرع إلى معونتي لأنني ألتجئ إليك كحصن).

---

(١) الإشارة هنا إلى رؤيا سبقت استشهاده.

(٢) مجموعة الآباء اليونانيين ٥: ١٠٤٠ ونشر النص مع تنقيحات أساسية العالم الألماني Knopf - Krüger في مجلده المعروف بأعمال الشهداء وسيرهم – جامعة توبنجن سنة ١٩٢٩، نص ٥.

(٣) نفس المرجع السابق نص ١٠ – ١٣.

(٤) علم الآباء، ١٩٥٨ ص ١٩٥.

لوسيان ومرقيان[١]

كلاهما قتلا بالسيف في نيقوميديا في اضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠ وقبل قتلهما صليا معاً:

"نقدم لك تسبيحنا الفقير الذي لا يليق بك يا رب يسوع لأنك دافعت عنا. أغفر لنا نحن المخلوقين غير المستحقين. أنت أتيت بنا من ظلام الوثنية وبرحمتك أتيت بنا إلى هذه الآلام المجيدة، وهي شرفٌ نناله لأجل كرامة اسمك. الشكر لك لأنك أعطيتنا نصيباً في مجد قديسيك. السبح لك. المجد لك. في يديك نستودع نفسينا وروحينا".

بيونيوس ومثرودوروس[٢]

كلاهما أحرقا بالنار أحياء. كان بيونيوس قساً، وكان مثرودوروس شخصاً غنياً من التجار. أحرقا في سميرنا في ٢٥ يناير سنة ٢٥٠. يقول شاهد العيان:

"وعندما جاء بيونيوس ومثرودوروس إلى المكان تحولا إلى الشرق[٣] بيونيوس أغلق عينيه وصلي في صمت، وعندما نظر إلى النار أشرق وجهه بفرحٍ وقال: "**آمين**"، ثم قال: "**يا رب اقبل نفسي**". أمَّا مثرودوروس فقد قال: "**آمين**".

تعد هذه النصوص من أقدم الصلوات التي وصلتنا، وقد نطق بها أُناس كانوا قريبين من النار والسيف، ولكنهم أسلموا أرواحهم ليسوع المسيح ابن الله ولله الآب ... ويمكننا أن نلاحظ بكل وضوح أن الصلوات ليس فيها طابع الانتقام أو التذمر، بل الشكر والرضى.

---

(١) نشر النص Ruinars في كتابه المشهور Acta Primorum Martyrum Sincera والذي طُبع في باريس ١٨٢٩.

(٢) Knopf - Krüger نص ٥٦.

(٣) الاتجاه للصلاة حسب طقس الكنيسة.

+++

بركة الشهداء الأطهار فلتكن معنا.

آمين

+